إقرأ

صنيعة الشيطان

حسن رشاد

دار المعارف بمصر

٥

صنيعة الشيطان

محمود تيمور

حسن رشاد

صنعة الشيطان

اقرأ ٢٧٦

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٧٦ – ديسمبر سنة ١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

الفصل الأول

كان كمال موظفاً نابهاً اشتهر بين زملائه بالاستقامة والحيوية والطموح . وكان منذ تخرجه فى كلية التجارة قد استن لنفسه نهجاً عزم على ألا يحيد عنه وهو أن يكون دائماً سيد نفسه وألا يسمح لأى تأثير خارجى بأن يتحكم فى حياته ، وتحت تأثير هذه النزعة الاستقلالية لم يفكر كغيره من الشبان فى الحب أو الزواج أو فى أى أمر من الأمور المتعلقة بالنساء خوفاً من سيطرة المرأة وتحكمها فى حياته . ولكن سلطان الحب كان أقوى من إرادته فما كاد يرى نجوى حتى انخذل تصميمه أمام جمالها الساحر فأحبها وأحبته ، وتحدث الاثنان بحبهما إلى أهلهما فأما أم كمال فقد رحبت بهذا الزواج وشجعته ورأت فيه خيراً لابنها وفرصة طيبة تنسيه مرارة حزنه على وفاة أبيه . وأما والد نجوى وأمها فقد مانعا فى هذا الحب وهذا الزواج أملا فى أن تتزوج ابنتهما الجميلة شاباً آخر له من المكانة والجاه ما يضمن لابنتهما عيشة رغدة تليق بحسنها وجمالها وبما علقاه عليها من آمال كبار .

وحاول الأبوان أن يحولا بين نجوى وبين هذا الزواج وتوسلا لذلك بشتى الوسائل ولكن كل محاولاتهما باءت بالفشل وكان سبب إخفاقهما ذلك الحب القوى الذى كانت تكنه نجوى لكمال والذى جعل الأمر فوق إرادتهما ، وأخيراً تمت كلمة الحب وانتصر العاشقان وتزوجا وعاشا فى الحب والصفاء زمناً رزقا فيه بطفلة جميلة أسمياها « عفاف » كانت محط حبهما وملتقى عطفهما .

ثم أعقب ذلك فترة كفاح فى ميدان العمل استطاع كمال خلالها أن يوفق إلى عمل مستقل فأنشأ مصنعاً لصنع الجوارب فى قليوب وشركة لبيع الأقمشة والملابس فى القاهرة وازداد نجاحه يوماً بعد يوم بفضل كفاحه وطموحه ومثابرته ، وأغراه هذا النجاح بمضاعفة جهوده لتنمية ثروته وكان من أثر الجهود التى بذلها فى هذا السبيل أن وفق إلى عقد عدة صفقات درت عليه أرباحاً طائلة .

وكان من الطبيعى أن يترتب على هذا النجاح فى العمل تغيير كبير فى حياته ، فترك حى شبرا وأقام مع زوجته وابنته فى فيلا أنيقة بمصر الجديدة حشدا فيها كل وسائل الترف والنعيم .

وكان كمال قبل انهماكه فى أعماله يحب نجوى كما تعود الأزواج العشاق أن يحبوا زوجاتهم الفاتنات ، يحوطها بحبه ويغمرها بعطفه ويؤثرها بكل ما يستطيع من الهيام والحنان . وعاش الاثنان فى هذه العيشة الراضية السعيدة ثلاث سنوات وقفت فيها نجوى قلبها وعقلها وشعورها وعواطفها كلها على زوجها الذى غمرها بسعادة لا تعرف حداً وأحاطها بحب لا يعرف أمداً .

وفى العام الرابع شعرت نجوى بأن حب زوجها لها لم يعد مشبوباً ولا متقداً كسابق عهده فجزعت وراحت تفتش عن السبب فاستكشفت أن زوجها لم يصرف عنها لخيانة أو غدر وإنما شغل عنها بعض الشىء بأعماله ومشروعاته وصفقاته ، ولم تضق نجوى بذلك فى بادئ الأمر وإنما رأته شيئاً ملائماً لطبيعة الأشياء بعد أن مضى على زواجهما أربع سنوات ، وملائماً كذلك للتطورات الضخمة التى طرأت على تجارة زوجها بعد أن اتسعت أعماله وتعددت مشروعاته . وبذلك تغلب عقل نجوى على عاطفتها وطوت صدرها على ضيقها فلم يعلم زوجها أنها تأثرت بانصرافه عنها بقليل أو كثير .

واحتملت نجوى فى سبيل حبها من تقصير زوجها الشيء الكثير ولكنها بمرور الزمن لم تستطع أن تحتمل أكثر مما احتملت بعد أن رأت زوجها يشغل عنها بالمال حتى أصبح لا يفكر إلا فيه ولا يعيش إلا له . وعجبت نجوى أشد العجب من مواقف زوجها ومن الحياة التى بدأ يحياها ، لقد أصبح رجلا ثرياً ولكن الثروة لم تثر فيه إلا الرغبة فى الاستزادة من المال ، وأصبح ذا جاه ولكن الجاه لم يثر فيه إلا الرغبة فى الاستزادة من الارتفاع .

وبدأت على أثر ذلك سلسلة من المشاحنات بين نجوى وكمال ، وكان كمال فى قرارة نفسه يشعر بآلامها وفى كثير من الأحيان كان يعاهد نفسه أن يغير نهجه معها ، ولكنه سرعان ما كان يعود إلى سيرته أمام عنفها وعنادها إذ كان الإذعان لها أشد ما يخشاه . وعلى هذا انعكس اتجاهه من وجوب اتباع الملاطفة والترضى إلى شعور بالرضى عن سلوكه العنيف معها ، وتطور الأمر حتى لم يعد لمنظر عينيها المحمرتين أثر فى نفسه . كان مقتنعاً بأن تصرفاته التى تثير حنقها وغضبها تصرفات سليمة لا تجافى العدل وأن عنادها وإصرارها على أن يفرغ لها كما كان يفعل أيام شهر العسل مسلك صبيانى سخيف لا يمكن أن يقبله رجل أعمال مثله على نفسه .

وكان هذا أكثر مما تستطيع نجوى تحمله فتركت له المنزل غاضبة وذهبت مع ابنتها إلى منزل أبويها ، وبعد انتظار ممض استغرق عدة أيام جاء زوجها لمصالحتها فاستقبلته نجوى بابتسام فاتر ونشاط متكلف ولو أنها أرسلت نفسها على سجيتها وأطاعت عواطفها فى تلك اللحظة لألقت نفسها بين ذراعيه ولكنها تكلفت الرزانة حتى لا تظهره على حقيقة ما بنفسها ؛ أما هو فقد قبلها فى رفق ثم احتضن ابنته وجلس مع أبويها يتجاذبون الحديث ، وبعد مناقشة وعتاب استطاع الأبوان أن يصلحا

بينهما ، ومال كمال إلى زوجته فضمها إليه وقال لها فى حنان :

— إنك تعلمين مقدار حبى لك كما أننى بدورى أعلم مقدار حبك لى ولذلك ينبغى ألا نسمح لأى شىء أن يفسد ما بيننا .

— ولكنك تحب المال والنجاح أكثر منى . . .

— أبداً . . أبداً . . أؤكد لك أن ذلك غير صحيح ، إن كل ما أبتغيه هو أن أوفر لك ولعفاف أوفر نصيب من السعادة والرفاهية ، فإذا بدر منى من الأعمال والتصرفات ما يضايقك فيجب أن تأخذيه على محمل حسن ويجب أن تظل ثقتك بى كما هى وهى أن كل ما أقوم به لا أستهدف من ورائه سوى إسعادنا معاً .

وعاد الزوجان إلى بيتهما واستأنفا حياة جديدة نعما فيها بالحب والصفاء والسعادة الكاملة حتى لقد بلغ من سعادة نجوى أنها حارت فى تعليل مصدر هذا الهيام ، وبعد تفكير عزت ذلك الهيام إلى قول كانت قد قرأته فى بعض الكتب وهو أنه من الخير للزوجين العاشقين أن يفترقا من وقت لآخر ليبقى حبهما متجدداً على الدوام .

الفصل الثانى

ومضت الأمور على خير ما كانت تحب نجوى زمناً فرغت فيه لزوجها وفرغ فيه زوجها لها بعض الشيء ولكن ما كاد ينصرم على ذلك شهور قلائل حتى عاد كمال إلى ما كان عليه قبل خصامهما يستأثر العمل بكل وقته وكل نفسه ويشغله عن كل إنسان حتى زوجته .

هنالك لم تر نجوى بداً من أن تتخلى نهائياً عن عواطفها فقررت بينها وبين نفسها أن تحيا حياة خالية من الحب ومشاكله ومتاعبه وآلامه . واستطاعت بعد هذا القرار أن تتحمل كل شيء . ثم اتخذت خطوة أخرى كان لها أثرها فى هذا التحول الكبير . وكانت هذه الخطوة هى محاولتها توسيع أفق معارفها وأصدقائها . ولم يستغرق ذلك منها وقتاً طويلا فما هى إلا أسابيع قليلة حتى التف حولها مجموعة من الصديقات انسجمت معهن ووجدت فى صحبتهن من الأنس والألفة ما خفف عنها آلام الوحدة وخيبة الأمل ومرارة الحرمان .

وكان من بين هؤلاء الصديقات سيدة جميلة فى مثل سنها تدعى « عديلة » ما إن تعرفت عليها حتى نبتت الألفة بينهما وأصبحت لها صديقة مخلصة تبادلها الصداقة والحب والمودة :

وذات مساء خرجت نجوى لتزور عديلة فى دارها بالزمالك . وكانت عديلة تعيش مع زوجها الكهل عيشة تناقضت فى وصفها الآراء : فأما عامة الناس فكانوا يصفونهما بالمجون والحماقة والاستهتار أما من يعرفونهما من أبناء البيوتات فكانوا يصفونهما بالكرم والذوق السليم لأنهما جعلا من

بيتهما صالوناً فاخراً يقصده الأصدقاء والصديقات للاستمتاع بألوان النشاط والمرح والغبطة ، وألوان الفنون المختلفة .

وحين وصلت نجوى إلى الدار أنبأها أحد الخدم أن سيدته تتناول الشاى مع بعض ضيوفها فى قاعة الاستقبال ثم قادها إلى هناك وهو يغمغم بكلمات الترحيب ، وما إن أهلت على الحاضرين حتى تطلعت إليها الوجوه فى عجب وإعجاب ، ونهضت عديلة من مكانها متهللة الوجه وقالت لها :

ــ أهلا . . أهلا ، ما هذه الغيبة الطويلة ؟

فاعتذرت لها بعذر من الأعذار المألوفة وتقدمت إلى الداخل فقدمتها عديلة إلى ضيوفها وهى تذكر لمحة خاطفة عن كل واحد منهم كلما قدمته إلى نجوى . وأخيراً جلست نجوى وهى تجول ببصرها فى الحاضرين .

واستأنفت عديلة حديثها الذى كانت قد قطعته لدى دخول نجوى وقالت :

ــ كنا نتحدث عن برهان وعن لوحته الأخيرة ، فهل تعتقدون أنها ستصيب نفس النجاح الذى لقيته لوحته السابقة ؟

فقالت إحدى الحاضرات فى حماس :

ــ بكل تأكيد ، لقد بلغنى أنها من أجمل اللوحات التى أبدعتها ريشته . .

وعلق آخر على ذلك بقوله :

ــ وهذا ما سمعته أنا أيضاً ، ولو كنت مكانه لأرسلتها إلى معرض روما فى الموسم القادم فهو فى رأيى أنسب مكان لها .

وهنا التفتت عديلة إلى نجوى وقالت لها :

ــ أظنك طبعاً سمعت بالأستاذ برهان ، المدرس بكلية الفنون

والرسام الشهير . . .

فأجابتها قائلة :

— كلا ، هذه أول مرة أسمع به .

فنظرت إليها عديلة مدهوشة وقالت :

— عجباً ، كيف لم تسمعى به ، لقد كان موضع حديث الناس فى الشهر الماضى بعد أن رفعته لوحاته الأخيرة إلى القمة وأطنبت فى تقريظها المجلات والصحف .

— لست أدرى كيف فاتنى ذلك رغم أننى مولعة بالرسم ولعى بالفنون الأخرى ، ترى بم تمتاز طريقته فى الرسم ؟

— إنه رسام بارع يرسم الأشخاص حتى إنك لتحسين أنفاسهم فى صورهم ، ومعظم صوره يشيع فيها روح سمح تحبب إلى الرائى الضعف الإنسانى ، ولهذا فهو أبرع ما يكون عندما يرسم المرأة .

— ما أبدع هذا ، كم أنا مشوقة لرؤيته ورؤية بعض أعماله . . .

فأجابتها فى إشراق :

— بعد لحظات سترينه وستتحدثين إليه بنفسك . . .

فقالت نجوى مبهورة :

— أحقاً تقولين ؟ أهو على صلة بك ؟

— أجل إنه ابن خالتى ونحن الآن فى انتظاره . . .

وظلت نجوى تصغى إلى أحاديث الحاضرين دون أن تتكلم ، وبعد لحظات دخل أحد الخدم وأعلن قدوم الأستاذ برهان فأسرعت عديلة لاستقباله فى البهو ، ثم عادت بعد لحظة وبصحبتها شاب لماح الطلعة ، أنيق الملبس ، له لحية صغيرة مدببة تستثير بدقتها انتباه الرائى . وتقدم الشاب بخطوات خفيفة من المدعوين الذين خفوا للترحيب به ، وقضى وقتاً متنقلا بينهم يبتسم للبعض ويتبادل الحديث مع البعض الآخر ،

ثم تنبه فجأة على نجوى وهى تطيل النظر إليه عن كثب فاستدار قليلا وما كاد يتأملها وهى منزوية فى ركن منعزل حتى ثبت فى مكانه كالمسحور ، وظل يتطلع إليها لحظة كما يتطلع الفنان إلى وحى عظيم إلى أن أقبلت عليه عديلة قائلة :

ــ برهان ! ماذا دهاك ؟ لماذا تقف هكذا ؟

فثاب إلى وعيه وقال وهو لا يحول نظره عن نجوى :

ــ عديلة ، من هذه السيدة ؟

ــ هذه نجوى ، أعز صديقة لى بين صديقاتى الجديدات .

فهمهم يقول :

ــ لابد أن يكون الأمر كذلك لأننى لم أرها هنا من قبل ، يا لها من سيدة رائعة . .

فاكتأب وجه عديلة لهذا الإطراء ، وكان سر اكتئابها أنها كانت تحبه وتؤثره على غيره من الرجال الذين يترددون على دارها . ووقفت لحظة ترمقه ثم قالت له :

ــ أ أعجبتك نجوى إلى هذا الحد ؟

فقال مبهور الأنفاس :

ــ إلى أبعد حد يا عديلة ، إنها تحفة نادرة المثال . .

فقالت فى صوت كظيم :

ــ ما أعجب أمرك يا برهان ، لست أرى فيها شيئاً غير مألوف . .

ــ ذلك لأنك لا تنظرين إليها بعين الفنان ، أما أنا فأرى فيها ما يخفى على عين الشخص العادى ، أرجو أن تقدمينى إليها فى الحال .

فتكلفت الابتسام وأخذته من ذراعه وقادته إلى حيث كانت تقف نجوى وحدها ، وبعد أن قامت بواجب التعارف بينهما قالت لنجوى :

ــ هنيئاً لك ، الأستاذ برهان معجب بك للغاية . .

فتورد وجه نجوى وقالت فى خجل :

– هذا إطراء لا أستحقه ، ماذا فىّ يستحق إعجاب فنان عظيم مثل الأستاذ برهان ؟ . . .

فقال برهان فى حماس وعيناه تختلجان ولا تتحولان عن محياها :

– هذا تواضع منك ، إن لك مميزات تلهب خيال الفنان ، وأى خيال لا يتحرك أمام كل هذا الجمال الذى تجمع فى شخص واحد . . .

فأطرقت نجوى لحظة ثم رفعت رأسها وقالت :

– أشكرك يا أستاذ برهان على هذا التقدير . .

فقال وهو يدقق النظر إلى عينيها :

– بل الشكر لعديلة ، فلولاها لما تعرفت بشخصيتك الرائعة . .

فقالت عديلة وهى تخفى ما بها :

– العفو . . العفو ، يظهر أن نجوى أعجبتك كل الإعجاب . .

– وكيف لا تعجبنى ، بل كيف لا تعجب الدنيا بأسرها ، إنى لأنزل عن أعز ما أملك فى سبيل رسم صورة لها . .

فرفعت نجوى رأسها وحملقت فيه من فرط دهشتها فما كانت تنتظر أن تسمع من فنان شهير أن يصفها بهذا الوصف ، وبلغ من ذهولها أنها ظلت شاردة لا تتكلم إلى أن أخرجها برهان من شرودها بقوله :

– ما بالك لا تتكلمين ، ما قولك فى هذا العرض الذى أعرضه عليك . . .

فتنبهت نجوى لنفسها وقالت وقد بدت الحيرة على وجهها :

– هذا شرف كبير ، لكن . . .

– ولكن ماذا ؟

ـ زوجى ، قد لا يروقه موافقتى على ذلك . .

فقالت عديله :

ـ آه ، هذا اعتراض وجيه ، إن الأستاذ كمال قطعاً لن يوافق إذا علم بالأمر . . .

فتدخل برهان قائلا :

ـ ولم لا يوافق ؟ ومع ذلك فبوسعنا أن نؤدى هذا العمل هنا بدلا من الأتيلييه إذا سمحت بذلك . .

فأجابته عديله :

ـ بالتأكيد يا برهان ، إن ذلك يسرنى . . .

فنظر برهان إلى نجوى وقال :

ـ إذن لا يبقى إلا أن نسمع جواب نجوى هانم . . .

فترددت نجوى لحظة ثم قالت :

ـ ليس لدى مانع ، ولكنى أرجو أن تمهلنى بعض الوقت . .

ـ كما تشائين ، هاك بطاقتى ، بوسعك أن تتصلى بى فى أى وقت لتحديد الموعد المناسب ، بقى شىء واحد أحب أن أصارحك به . . .

ـ ما هو ؟

ـ هو ألا تبخلى على بهذا الشرف مهما كانت العقبات ، لأنك ستكونين النموذج الوحيد الذى سأستقى منه فنى ، فهل تعدينى بذلك ؟

فصمتت قليلا ثم قالت :

ـ أعدك بأن أفكر فى الأمر .

وعلى أثر ذلك تركوا مكانهم وانضموا إلى سائر المدعوين وقضوا الوقت معهم يتحدثون ويتناولون المرطبات التى أعدتها لهم عديلة ، وبعد ساعة نهض برهان والتفت إلى الجالسين وقال :

ـ عندى اقتراح . . .

فالتفت إليه الحاضرون وسأله بعضهم :

— ما هو ؟

— هو أن تأتوا معى إلى الأتيليه لتشاهدوا بعض اللوحات التى أعددتها للموسم القادم ، فما رأيكم ؟

فهلل البعض لهذا الاقتراح بينما احتجت عديلة قائلة :

— كلا ، لا تذهب يا برهان إلى الأتيليه الليلة بل ابق حتى يعود زوجى ، إنه لن يتأخر طويلا . . .

— لا أستطيع لأننى مرتبط بموعد مع بعض أصدقائى هناك . . .

قال ذلك ثم التفت إلى نجوى وقال :

— وأنت يا نجوى هانم ، هلا أتيت معنا . .

فرنت إليه رنوة جذابة وقالت وعلى ثغرها ابتسامة مشرقة :

— أرجو المعذرة ، الوقت متأخر . .

— إذن أرجو ألا تنسى ما اتفقنا عليه . .

— لن أنسى بالطبع . . .

الفصل الثالث

وعادت نجوى إلى منزلها فى تلك الليلة محبورة فخوراً . وطافت برأسها كلمات برهان فأحست بجسمها تشيع فيه رخاوة ونشوة لم تعتدها من قبل ، ثم شعرت برغبة فى أن تخلو لنفسها فتركت ابنتها عفاف مع خادمتها وذهبت إلى مخدعها وتمددت على السرير وأطلقت لأفكارها العنان . . ولم تلبث أن مرت بمخيلتها صور وأحلام متشابكة متلاحقة ، شاهدت فيها أطياف عديلة وضيوفها فرداً فرداً ثم ركزت تفكيرها حول برهان ، وبدت لها صورته وهو فى مظهره الأنيق ونظراته المتألقة فى شكل يبعث على الإعجاب وتذكرت قوله : إن لك مميزات تلهب خيال الفنان ، وأى خيال لا يتحرك أمام كل هذا الجمال الذى تجمع فى شخص واحد . فانتشى فؤادها وامتلأ قلبها فرحاً وابتهاجاً .

وانطلقت فى أحلامها ، وظلت سابحة فى أفكارها إلى أن عاد زوجها فى ساعة متأخرة من الليل فنهضت متثاقلة وحيته ، ولاحظ كمال سهومها وشرودها فالتفت إليها وقال :

ـ ماذا بك ! أمريضة أنت ؟

فأجابته فى تباطؤ :

ـ لست مريضة ولكنى متعبة . .

فانبعثت منه ضحكة خاطفة وقال :

ـ متعبة ! ! أى عمل كنت تقومين به فسبب لك التعب ؟

وكانت فى لهجته مسحة من التهكم فرفعت هامتها إليه وقالت :

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى أنك لا تقومين فى البيت بأى عمل ، فما الذى أورثك كل هذا التعب ؟

فأجابته فى شىء من الحدة :

ـ وماذا تريد منى أن أفعل ؟ أتريد أن أكون خادمة ؟

فتجهم وجهه ولكنه كظم ما بنفسه ولم يعلق على كلامها بشىء وبعد هنيهة شاع فيها الصمت قال لها وهو يدخن محدقاً فى سقف الحجرة :

ـ لست أدرى لماذا ينتهى كل حديث بيننا دائماً إلى تشاحن وشجار .

فقالت فى جفوة :

ـ أتسألنى أنا !! سل نفسك . .

فقال فى لهجة يشوبها الهدوء :

ـ لقد فكرت فى هذا الأمر كثيراً وأعتقد أن أعصابك بحاجة إلى الراحة ، ولهذا فكرت فى إرسالك مع عفاف إلى بلدتى لقضاء أسبوعين أو ثلاثة مع أمى ، إنها كما تعلمين جيداً تكن لك عاطفة طيبة ولذلك فإن إقامتك معها ستفيدك كثيراً .

فاحتقن وجهها وقالت وهى ترميه بنظرة متقدة :

ـ وإذا لم أقبل ؟

ـ ولماذا لا تقبلين ؟

ـ لأننى لا أحب الريف ولا عيشة الفلاحين . .

ـ إنك تعلمين أن أمى سيدة متعلمة وغنية وعيشتها هناك تختلف كل الاختلاف عن عيشة كثير من سكان الريف . .

وسكت لحظة ثم استطرد :

ـ ومع ذلك فبوسعك أن تجربى ، وإذا لم يعجبك الحال فباستطاعتك أن تعودى فى أى وقت شئت.

واقتحمت مخيلتها فى تلك اللحظة صورة برهان ، فأحست بقلبها يدق وعادت مشاهد اليوم تستبد بتفكيرها وتشيع فى نفسها خواطر متضاربة فيها اللذة والنشوة وفيها إلى جانب اللذة والنشوة الخوف والندم واضطراب النفس وقلق الضمير ، وفجأة وجدت نفسها تنظر إليه وتقول :

— حسناً . . . سأجرب . .

فسر كمال بهذا الانقياد أما هى فقد أحست راحة تسرى فى فؤادها بعد أن قضت بموافقتها على ما كان يساورها من تفكير آثم ورغبة يأباها الخلق والشرف والضمير .

وفى اليوم المحدد للسفر نهضت نجوى مبكرة وشرعت تعد أشياءها وأشياء ابنتها استعداداً للرحيل . وعندما حان موعد السفر أقبل عليهما كمال فاحتضن ابنته ثم قبل زوجته فاستجابت له بقبلة عابرة ، ولما تحركت بهما السيارة التفتت نجوى إليه فرأته يحدق فيها مبتسماً فى حنان فباغتها شعور بالقلق لم تعرف مصدره . وبعد لحظة انطلقت بهما السيارة تشق طريقها فى شوارع القاهرة إلى أن تخطت حدودها ومضت بعد ذلك تسير فى طرق تكتنفها المزارع والحقول والمناظر الجميلة ، ولكن بصر نجوى ظل طول الوقت متجهاً إلى باطن نفسها لا إلى ما حولها من المناظر الجميلة ومشاهد الطبيعة الخلابة .

وواصلت السيارة سيرها ثلاث ساعات وأخيراً ارتفعت أمام بصر نجوى بلدة حماتها « دولت » ، وما كادت السيارة تقترب من الدار حتى وثب من فيها يرحبون بها وبابنتها وكان فى مقدمة من أسرع للاحتفاء بها حماتها وابنتها « زينب » التى جاءت مع زوجها فى زيارة طويلة لأمها . وكانت دولت سيدة تميل إلى النحافة فى نحو الخامسة والخمسين من عمرها وكانت تبدو عليها سماؤها الحقيقية سماء المرأة التى عاشت فى المدن زمناً ثم طبعت بأحوال الفلاحين لطول عشرتها بينهم .

وأخذت دولت نجوى من يدها وسارت بها إلى الداخل يتبعها بقية من بالدار وهي تهمهم بكلمات الترحيب ، وكان للاستقبال الحار الذى قوبلت به نجوى أثره فى نفسها فدفعها ذلك إلى ملاطفة الجميع . وأخيراً وجدت نفسها فى غرفتها وقد زال عنها الهم ، وبعد لحظة فتحت نافذة الغرفة فوجدتها تطل على أشجار خضراء بينما غمرت الغرفة على الفور رائحة نفاذة صادرة عن الأرض المبتلة والأعشاب الخضراء .

وفى هذه البيئة الريفية الحلوة نشطت روح نجوى نشاطاً كبيراً وكان ذلك لرقة هوائها وجمال مناظرها ولشعورها بوجودها فى بقعة جديدة بعيدة عن جو القاهرة المشحون بالعواطف والانفعالات العنيفة ، وهكذا تزايد حبورها واشتد اغتباطها وامتزجت حالتها النفسية امتزاجاً جميلا فى ذلك الجو الريفى البديع .

ومر أسبوع دون أن تحس نجوى مللا أو سأماً فقد كان كل يوم حافلا بألوان النشاط المختلفة التى كانت تدبرها لها حماتها : من رياضة فى الحقول والبساتين إلى طواف بالقرى المجاورة ، إلى تنافس فى صيد الأسماك واجتناء الثمار والأزهار ثم العودة إلى الدار للسمر والأحاديث المختلفة التى تستغرق شطراً كبيراً من الليل .

وفى اليوم الثامن استيقظت نجوى متكاسلة عقب نوم عميق صاف وما كادت تفتح عينيها حتى رأت دولت تدخل الحجرة وبيدها رسالة تقلبها بين يديها ، فنهضت نجوى من فراشها قائلة :

ـ آه ، أخيراً فكر فينا . . . رسالة من كمال بالطبع . .

فأجابتها وهى تحدق فى الرسالة :

ـ هذا ما أعتقده ولكن طابع البريد على الغلاف أدهشنى . .

ولمحت نجوى طابع البريد اللبنانى على الغلاف فأخذت الرسالة وما كادت تتأمل الخط المدون على الغلاف حتى اعترتها الدهشة وتمتمت :

ـ عجباً . . كمال فى لبنان ! !

فرفعت إليها دولت بصرها وقالت متسائلة :

ـ ألم يخبرك بذلك قبل مجيئك ؟

فقالت فى سهوم وهى تفض الرسالة :

ـ أبدا . . لم يخبرنى بشىء .

وفضت الرسالة وقرأتها ، فإذا بها من كمال وإذا به ينبئها بأنه سافر إلى لبنان لعقد صفقة تجارية وأنه قد يمكث هناك لمدة أسبوعين وأن لها الخيار فى أن تبقى فى البلدة أو العودة إلى القاهرة أثناء تغيبه . وما إن فرغت نجوى من قراءة الرسالة حتى اكفهر وجهها وخبت اللمعة التى كانت تضىء عينيها ، فنظرت إليها دولت متطلعة متشوقة وقالت :

ـ خير إن شاء الله ، ماذا قال لك فى الرسالة ؟

فقالت نجوى وهى تكظم الغضب الذى تسلل إلى قلبها :

ـ قال إنه سافر بعد يوم واحد من حضورى إلى هنا ، وخيرنى بين انتظاره هنا أو العودة إلى القاهرة .

فحدقت فيها دولت وقالت وهى تعجب من تغيرها المفاجئ :

ـ وما ضير ذلك يا نجوى ، أمستاءة أنت ؟ . .

فأمسكت عن الكلام لحظة ثم قالت فى ضيق :

ـ أما كان من الواجب أن يخبرنى بنيته ، ماذا كان يضيره لو أخبرنى ولكنه كعادته يتجاهل وجودى فى كل شىء .

فقالت دولت وهى تمسح على رأسها فى حنان :

ـ ما هذا الكلام يا نجوى ، كيف يتجاهل وجودك وأنت عنده كل شىء .

فأخذت نجوى تهز قدميها هزاً عصبياً ثم قالت :

ـ لو كنت كما تقولين لما تصرف هذا التصرف . .

ـ يجب أن تعذريه يا بنتى ، أنسيت أنه رجل من رجال الأعمال ، حقاً لم أكن أتوقع ذلك منك .

وشرعت دولت بعد ذلك تتحدث عن واجبات الزوجات حيال أزواجهن وتعدد لها الأقوال المأثورة التى تحض على التسامح فى مثل هذه الأمور ، واستمعت نجوى طويلا إلى حديث حماتها فى صمت ولكنه كان صمتاً مزدحماً بالخواطر ، ولما أن ضاق صدرها بما يضطرب فيه من عواطف ونزعات ومشاعر نظرت إليها وقالت لها :

ـ أشكرك وأعدك بأن أكون عند حسن ظنك ، والآن يجب أن أستعد للسفر . . .

ـ سفر ؟ !

ـ نعم ، سأعود اليوم إلى القاهرة . . .

ـ ولماذا تسافرين يا نجوى ؟

ـ لأننى لا أحب أن أترك المنزل فى رعاية الخدم طول هذه المدة ثم إننى بحاجة إلى استشارة أحد الأطباء فى آلام أحس بها فى مفاصلى .

وفى هذه اللحظة دخلت أخت كمال تدعوهما لتناول الفطور فالتفتت إليها أمها وقالت :

ـ أسمعت يا زينب ؟ إن نجوى تريد العودة اليوم إلى القاهرة .

فقالت زينب فى دهشة :

ـ أصحيح هذا يا نجوى . . . لماذا أنت متعجلة ، هل حدث شىء ؟

فأجابتها نجوى :

ـ أبداً ، كل ما فى الأمر أننى أشعر بآلام فى مفاصلى .

فأجابتها زينب :

ـ لا تنزعجى فبوسعنا أن نستدعى لك طبيب المركز على الفور .

فقالت نجوى فى إصرار :

ـ كلا . . لا داعى . . سأسافر لأعرض نفسى على أحد الأخصائيين ، هذا فضلا عن حاجة المنزل إلى وجودى بعد سفر كمال إلى لبنان . .

ـ هل سافر أخى إلى لبنان ؟ . . .

ـ نعم وسيمكث هناك مدة طويلة وليس من المناسب أن أترك المنزل فى رعاية الخدم أثناء تغيبه . .

فالتفتت زينب إلى أمها وقالت :

ـ إذا كان الأمر كذلك وإذا كانت نجوى مصرة على السفر فعلينا ألا نضايقها . .

فقالت دولت :

ـ بالطبع ، إن راحة نجوى هى التى تهمنا ، ويبدو أننا أخفقنا فى إسعادها . .

فبادرت نجوى قائلة :

ـ أبداً . . أبداً ، أؤكد لك أننى سعيدة جداً هنا ولكن الموقف الذى جد يستلزم سفرى .

فأجابتها دولت :

ـ كما تشائين يا نجوى ولكن لى رجاء .

ـ ما هو ؟

ـ هو أن تتركى لنا عفاف لنسعد بوجودها معنا أطول مدة ممكنة ، فهلا وافقت على ذلك ؟

فترددت نجوى لحظة ثم قالت :

ـ مادامت هذه رغبتك فلا يسعنى إلا الموافقة .

— أشكرك وثق أننا سنسهر على راحتها وسنجعلها سعيدة للغاية .

— لست أشك فى ذلك . إننى أعرف أنها تحبك كما تحبنى سواء بسواء .

وعندما حان موعد الرحيل احتضنت نجوى ابنتها بشدة وقبلتها فى حنو بالغ ثم ودعت أهل زوجها واستقلت سيارتها عائدة إلى القاهرة .

وما إن وصلت السيارة إلى منزلها حتى هرول إليها البستانى وبعض الخدم وحملوا حقائبها وهم يغمغمون بعبارات الترحيب فحيتهم وقضت معهم بعض الوقت تتحدث إليهم وتستمع إلى كلامهم ثم صعدت إلى حجرتها وهى تشعر بضيق لا حد له . وبعد أن خلعت ملابسها استلقت على السرير وأسبلت جفنيها وأطلقت لأفكارها العنان .

كانت وهى فى سورة حنقها على زوجها قد أجمعت رأيها على ألا تبالى به أو تكترث بمواقفه وتصرفاته وخاصة بعد تلك الجرعة المرة التى أرغمها على تجرعها أثناء وجودها مع أمه ومن ثم لم تكن تحس بحاجة إلى مجهود كبير من أجل سحق كل شعور طيب فى نفسها نحوه ، أما المعضلة الكبرى التى كانت تمضها فهى : هل ينبغى لها أن تحاول الاتصال ببرهان لكى يملأ هذا الفراغ المروع الذى تشعر به ولكى تستمتع بتلك المتعة التى تهفو إليها نفسها بصحبته ؟

وقضت وقتاً وهى تتململ تحت كلكل تلك العواطف والمشاعر القوية القاهرة ، تلك العواطف التى أرهقتها بها قوة الطبيعة وسنتها والتى لم تعد تستطيع حيال ضغطها نضالا أو اصطباراً .

وفى خضم الأفكار المتتابعة وأصداء الخواطر الملحة المتضاربة قررت الاتصال ببرهان ووطنت نفسها على قبول ما اقترحه عليها ، ولكنها رغم ذلك كله ورغم الحجج التى كانت تدلى بها إلى نفسها تبريراً لهذا الاتصال ،

شعرت بضيق شديد حيال هذا القرار وأرقها التفكير فيه وفى عواقبه ليلة كاملة بما كان يثيره فى نفسها من عواطف الألم والخوف والإشفاق ، ثم تغلب عليها أخيراً ذلك الميل الباطنى القهار الذى كانت تشعر به يدفعها إلى ارتياد المتعة حيث تكون .

الفصل الرابع

واستيقظت نجوى فى اليوم التالى ظاهرة الرضا ، واستقبلت ساعات النهار مبتسمة للأمل ، متهيئة للسعادة ، مشفقة فى الوقت نفسه من طارئ يطرأ أو حادث يلم ، ولكنها سرعان ما استعادت رباطة جأشها فأمسكت بسماعة التليفون واتصلت ببرهان وحددت له موعداً للقائه فى الأتيليه للبدء فى رسم الصورة التى ألح فى طلب رسمها لها .

وخرجت عند الغروب واستقلت سيارتها بمفردها وانطلقت بها إلى شارع قصر النيل يرافقها ظل من السعادة وظل آخر من القلق والاضطراب ، وبدت لها الشمس الغاربة قبيحة كأنها جرح قانٍ كبير فى الأفق فاقشعر بدنها ولكنها اندفعت فى طريقها وهى تقول لنفسها :

— وأى ضير فى هذا ما دمت لن أتورط فى إثم ، أليس من حقى أن آخذ بحظى من السعادة . أليس من الظلم أن أقضى شبابى حليفة الوحدة التى لا تليق إلا بالشيوخ ، إننى لم أخلق لهذا ومن الظلم أن أبدد شبابى فى هذا الجو الكئيب الذى لا يطاق . .

وأخيراً وصلت إلى الأتيليه وما كاد برهان يعلم بوصولها حتى سارع للقائها وحياها بوجه متهلل تكسوه البشاشة والإشراق وعندما مدت إليه يدها انحنى عليها وقبلها فى رشاقة وقال وهو يتوسمها بنظراته المتألقة النفاذة :

— هذه سعادة لم أكن أتوقعها ، إننى أعتبر نفسى الآن أسعد إنسان يا نجوى هانم .

فابتسمت له وقالت فى صوت عذب :

ـ أشكرك ، لقد أحببت أن أزورك فى الأتيلييه لأتفرج على ما فيه . .
ـ هذا شرف عظيم . . تفضلى . . أرجو أن تجدى فيه ما يسرك .

وقادها إلى الداخل . وكان الأتيلييه قاعة كبيرة تشبه قاعات المعارض الفنية بما كان يزدان به من لوحات جميلة وصور فنية رائعة . وطافت نجوى معه أرجاء القاعة وهى تتأمل فى إعجاب وسرور الصور التى أبدعتها ريشته وكانت بين وقت وآخر تتوقف لتسمعه عبارات الإعجاب والتقدير .

وانتهز برهان فرصة توقفها مرة وقال لها :
ـ إن إطراءك لأعمالى يسعدنى كثيراً ، أرجو أن تلقى نظرة على هذه الصورة .

وأشار إلى ركن تتوسطه صورة غطيت أجزاؤها بأغطية تناثرت عليها الأتربة ، وتقدم الاثنان نحو الصورة وبحركة خفيفة أزاح برهان الغطاء عن الصورة فإذا بها صورة نصفية كبيرة لعديلة برأسها وذراعيها وصدرها الجميل الممتلئ وفمها الذى ينفرج عن ابتسامة لاهية . كانت الصورة تنطق بالروعة وتشهد على براعة الفنان الذى خلقها وأبدعها ، ولم يسع نجوى إلا أن تراجعت إلى الوراء خطوة وهى تقول :

ـ يا لها من صورة رائعة . .
ـ هل أعجبتك حقاً ؟
ـ بكل تأكيد ، إنها تحفة رائعة لم أر مثلها من قبل . . هل استغرق رسمها منك وقتاً طويلا . .
ـ عدة جلسات لا أذكر عددها . .
ـ وهل كانت عديلة تحضر إلى هنا ؟
ـ نعم ، كانت تحضر ثلاث مرات فى الأسبوع ، وعديلة تعتبر نموذجاً طيباً للفنان لا من حيث جمال ملامحها وتناسق قدها فحسب بل

من حيث قدرتها على احتمال الوقوف أمام الفنان دون ملل ، وهذا شيء لا يصبر عليه كثير من الناس . .

ودعاها للجلوس على أريكة قريبة ثم جلس إلى جوارها وأخرج سيجارة من علبته الذهبية وقال لها :

— إن تقديرك لأعمالى يسعدنى كثيراً ولكنى ما زلت أعتقد أننى لم أصل بعد إلى درجة الإتقان التى تطمئن إليها نفسي لعدم وجود النموذج الكامل الذى يلهمنى فى عملى ولكنى أستطيع الآن أن أبلغ ما أريد بعد أن أسعدنى الحظ بمعرفتك .

فقالت وعيناها تتألقان :

— أما زلت مصراً على هذا القول ؟ أخشى أن تكون مبالغاً فى التخيل .

فقال فى حماس وهو يتوسمها بعينيه :

— أؤكد لك أن ما قلته ليس فيه مبالغة على الإطلاق ، والآن ما رأيك فى أن نشرع فى العمل على الفور ، إننى أحس رغبة فى العمل لم أحس بها من قبل .

وهزت هذه العبارة وتراً خفياً فى فؤادها ، هاهى ذى الآن تدخل فى التجربة الجديدة التى كانت تتطلع إليها وتحلم بها ، وأيقظت هذه الخواطر فى نفسها أعجب المشاعر فالتفتت إليه وقالت :

— ليس لدى مانع ولكنى أشترط شرطاً . .

— ما هو ؟

— هو ألا يعلم أحد بحضورى إلى هنا . .

— أعدك بهذا . .

— ثم هناك شيء آخر هو ألا تسمح لأحد بأن يرى صورتى بحال من الأحوال .

— وأعدك بهذا أيضاً كما أعدك بأن أحتفظ بصورتك مع الأعمال

التى أحتفظ بها لنفسى . . .

ـ فى أى مكان ستحتفظ بها ؟

ـ فى غرفة داخلية لا يعلمها سواى حيث تتاح لى فرصة التطلع إليها بين حين وآخر ليتسنى لى تحقيق شيئين .

ـ ما هما هذان الشيئان ؟

ـ الشىء الأول أن أتعرف على نواحى القدرة والضعف فى نفسى كرسام ، والشىء الآخر أن أشبع إعجابى بجمال المرأة التى ستكون من الآن فصاعداً ملهمتى فى عملى . .

فتورد وجهها وقالت وهى تبادله الابتسام :

ـ حسناً . . الآن يمكننا أن نبدأ . .

ونهضا معاً واتجها إلى ركن يتوسطه حامل مستقيم ثبتت عليه لوحة كبيرة وهناك أخذت نجوى مكانها إلى القاعدة المخصصة للنموذج بينما انشغل برهان فى تحضير معدات الرسم من ألوان وريش وأدوات مختلفة ، وبعد لحظات بدأ العمل وخيم على المكان على أثر ذلك السكون ، وظل برهان منهمكاً فى عمله زمناً وأخيراً سمعها تقول :

ـ لقد تعبت ولابد أن أستريح ، ألا يكفينا هذا القدر الليلة ؟

فأجابها :

ـ أرجو المعذرة ، لقد نسيت نفسى ونسيت كل شىء حولى . .

ـ لا عليك ، ما رأيك ، هل أديت دورى بنجاح ؟

ـ بكل تأكيد ، إن وقفتك رائعة فلم تبد منك أدنى حركة ولذلك أمكننى أن أنقل الخطوط الرئيسية بمنتهى الدقة والإتقان . .

وجلسا بعد ذلك وقتاً يتبادلان الأحاديث المختلفة وعندما حان موعد انصرافها قالت له :

ـ دعنى أنبهك مرة أخرى ، يجب ألا يعلم أحد بأننى أتردد عليك

هنا ، الله وحده يعلم ماذا يحدث إذا علم زوجى بالأمر . .

فقال وهو يضغط على يدها :

— كونى مطمئنة ، سأحرص كل الحرص على أن يظل كل شىء طى الكتمان .

وعادت إليه فى مساء اليوم التالى يضوع العطر منها ، وعندما أحس قدومها أسرع إليها واستقبلها وعلى فمه ابتسامة رقيقة ، ومدت إليه يدها فأمسكها وضغط عليها ثم قال وهو يتوسمها فى تودد ظاهر :

— ما أبهاك اليوم وما أجملك يا نجوى .

قال ذلك ثم ضغط على يدها مرة أخرى وقال وهو يرفعها إلى شفتيه :

— أتسمحين ؟

فأطرقت فى هدوء وتركت يدها فى يده فقبلها قبلة طويلة وهم بأن يقبلها قبلة أخرى فجذبت يدها فى لطف وهى تقول :

— ترى هل جئت فى الوقت المناسب ؟

فأجابها وشفتاه تختلجان :

— بكل تأكيد ، تعالى نجلس قليلا قبل أن نستأنف العمل . .

وجلسا على الأريكة وصمتا لحظة وبعد قليل قالت نجوى :

— أتدرى ماذا حدث هذا الصباح ؟

— خير إن شاء الله . .

— لقد اتصلت بى عديلة ولامتنى على تقصيرى فى زيارتها ثم استفسرت عما إذا كنت مستعدة للذهاب إليها لعمل الصورة . . .

— وماذا قلت لها ؟

— طبعاً كذبت عليها . . قلت لها إننى عدلت عن رأيى . .

— حسناً فعلت .

— وبالطبع ستكذب عليها أنت أيضاً إذا ألقت عليك نفس السؤال .

ـ طبعاً . طبعاً ، لقد اتفقنا على ذلك بالأمس ، وإذا كنا سنحرص على إخفاء الأمر عن الناس فيجب أن نحرص على إخفائه عن عديلة بصفة خاصة .

ـ ولماذا عديلة بالذات ؟

ـ لأنها ثرثارة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فهى على صلة بك وبزوجك كما فهمت . .

ووجدت نجوى الفرصة سانحة للتحدث عن عديلة فحدقت فيه لحظة ثم قالت :

ـ أريد أن أسألك سؤالا . .

ـ سلى ما شئت يا نجوى .

ـ أريد أن أعرف حقيقة شعورك نحو عديلة . .

فضحك وقال :

ـ ولماذا ؟

ـ مجرد سؤال . .

ـ إنها مجرد صديقة وهى فضلا عن ذلك ابنة خالتى ، هذا كل ما فى الأمر . .

فرنت إليه بعينين ناعستين وقالت :

ـ أرجو ألا أكون قد ضايقتك بسؤالى .

ـ بالعكس ، إن اهتمامك بى يسرنى كثيراً . . أتمانعين فى أن نخرج غداً لنتنزه معاً ونتحدث بعيداً عن جو الأتيلييه . .

فترددت لحظة ثم قالت :

ـ إلى أين تريد أن تذهب ؟

ـ نخرج بالسيارة لنقوم بنزهة قصيرة . .

ـ كما تريد . . . والآن هلم إلى العمل . . .

الفصل الخامس

وفى مساء اليوم التالى خرج الاثنان واستقلا السيارة وانطلقا بها تحت جنح الظلام قاصدين منطقة الأهرامات وفى الطريق قالت له :

— الآن نستطيع أن نستأنف حديث الأمس . فهل أنت مستعد ؟

— أنا طوع أمرك ، من أين تريدين أن نبدأ ؟

— فلنبدأ بالإجابة عن هذا السؤال . . هل فى حياتك امرأة تعدها أكثر من صديق ؟ . . .

— إذا كنا نتحدث عن الماضى فالإجابة بصراحة هى كلمة لا ، أما إذا كنا نتحدث عن الحاضر فأستطيع أن أقول إن فى حياتى الآن امرأة أعدها معبودتى الوحيدة .

فتطلعت إليه ملياً وقالت :

— من تكون ؟ أرجو أن تحدثنى عنها بصراحة .

فصمت لحظة ثم قال متهدج الصوت :

— مادامت هذه رغبتك فإليك الجواب الصريح ، إننى أحبك . . أحبك يا نجوى من كل قلبى . . أنت المرأة الوحيدة التى ملكت قلبى وعقلى وشعورى . .

واقترب منها وطوقها بذراعه وأوشك أن يقبل ثغرها فانفلتت منه بوازع نفسى وهى تقول :

— لا . . لا . . أرجوك . .

فحدق فى وجهها قليلا وقال وهو يكبت عواطفه المضطرمة :

ـ مغفرة يا نجوى ، كان ينبغى لى أن أستأذن ولكنى لم أع ما كنت أفعل ولم أقصد التهجم عليك ولكنى متيم بك ، متيم إلى أقصى حد .

فظلت صامتة لا تجيب فمس يدها برفق وقال :

ـ أ أنت غاضبة ؟

فثابت إلى نفسها قليلا وشعرت بموقفها فاضطربت ولكنها لم تنبس ؛ فقال وهو يتهد تنهدة يائسة كمن غلبته عاطفته على حكمته :

ـ لقد بحت بشعورى وما زلت أقول إننى أحبك وإن دنياى بغيرك لا تساوى شيئاً ، فهل يسوءك اعترافى إلى هذا الحد ؟

فتمتمت قائلة :

ـ لست أدرى ، ولكنى أرجوك ألا تستغل ضعفى مرة أخرى ، كما أرجو فى الوقت نفسه ألا تحنق على . .

ـ أنا أحنق عليك ! بالعكس ، إن موقفك هذا قد ضاعف احترامى لك وإعزازى إياك ، ليت كل النساء مثلك يا نجوى . .

وعندما عادت إلى منزلها وأوت إلى غرفتها شعرت برأسها يترنح فارتمت على سريرها يكتنفها شعور مختلط من اللذة والنشوة والخوف والاضطراب .

وحاولت أن تنام ولكن النوم استعصى عليها فظلت تتململ طول الليل فى فراشها دون أن يغمض لها جفن . ومضت ساعات الليل وهى غارقة فى دنيا غريبة من المشاعر والأفكار ، كانت تفكر أحياناً فى السعادة التى غمرتها حين اعترف لها برهان بحبه ، وخيل إليها فى تلك اللحظات أنها لم تنعم بالحياة قبل ذلك اليوم ، ولكن هذه المشاعر ما لبثت أن تبددت أمام فكرة أخرى تجمعت فى ذهنها فى صورة كلمة مخيفة منذرة : خائنة ! وعلى أثر ذلك ازدحم رأسها بصور أليمة مزعجة فرأت زوجها العصامى المكافح وتمثلت ثقته فيها ثم رأت ابنتها البريئة الجميلة وتمثلت حبها لها ، ثم تمثلت مع هذا كله مكانها من الإثم

والخيانة والغدر ، وظلت الصور المتضاربة تتلاطم فى رأسها حتى طلع الصباح فنهضت مضعضعة النفس موزعة القلب مؤرقة الضمير . وعندما تقدم النهار عزمت على قطع صلتها ببرهان قبل أن يتفاقم الأمر بينهما ولكنها بعد ساعة وجدت أن ذلك التصميم متعذر التنفيذ فقد كانت كل نبضة من نبضات قلبها تدفعها إليه ، وكانت كل ذرة فى كيانها تهفو شوقاً إلى الاستمتاع بكلماته الحارة التى تنطوى على الحب والعاطفة المشبوبة . وأخيراً وصلت إلى قرار وسط فعزمت على أن تذهب إليه لاستكمال الصورة على أن تعامله حين تراه معاملة فاترة خالية من كل ملاطفة أو تودد حتى لا يقف منها الموقف الذى وقفه بالأمس .

وخرجت من منزلها قرب الموعد المحدد واستقلت سيارتها وانطلقت بها إلى الأتيليه . كانت مضطربة ظاهرة الرضا على نفسها حيناً ، ساخطة أشد السخط على نفسها حيناً آخر ، وكانت مشاعر الكبت قد غيرت من ملامحها وطبعت وجهها الجميل بطابع كله فتنة وروعة وبهاء .

وحينما وصلت هرول إليها برهان وحياها وهو يتأمل وجهها الذى أفاضت عليه اضطرابات الليل سحراً أخاذاً ، وفعل جمالها العميق فعله فى نفسه فانطبعت على وجهه آيات الحب والإعجاب ، وكان وهو واقف أمامها يمنى نفسه بلقاء ينطوى على الحب ولكنه ذهل من الفتور الذى لاقته به فاعتقد أنها ترمى إلى أن تفهمه إنكارها واحتقارها لموقفه منها بالأمس ، وكان قد حاول أن يلثم يدها ولكنها انتزعتها منه فامتعض قليلا وقال :

— ماذا بك يا نجوى ! هل أفهم من ذلك أنك ما زلت مستاءة . .

فوقفت صامتة لحظة ثم قالت :

— نعم . . أنا مستاءة من جرأتك يا برهان . .

— لقد اعترفت لك صادقاً بأننى لم أع ما كنت أفعل ، ومع ذلك

فهأنذا أعتذر لك مرة أخرى عما بدر منى . .

ــ لا يكفى الاعتذار ، أريد أن تعدنى بألا تقدم على ذلك مرة أخرى .

فقال وهو يقودها إلى مكانها :

ــ أعدك بذلك . .

ومرت أيام لقيت فيها نجوى من برهان كل حفاوة وتلطف وتأدب ، وكثيراً ما كان يستبقيها معه بعد الانتهاء من الرسم لتناول بعض المأكولات الخفيفة معه أو قضاء بعض الوقت فى تبادل الأحاديث المختلفة .

وذات يوم ونجوى على أهبة مغادرة الأتيليه لمحتها عديلة وكانت فى طريقها إلى الأتيليه وما كاد بصرها يقع على برهان ونجوى وهما يقفان على عتبة الباب حتى اقتم وجهها ثم أسرعت وانزوت فى ركن مظلم وراحت ترقبهما وتستمع إليهما فى فضول شديد وسمعت برهان يقول لنجوى :

ــ بعد أسبوع تنتهى اللمسات الأخيرة يا ملهمتى العظيمة ، أرجو أن تكون اللوحة قد أعجبتك . .

فقالت نجوى وهى ترنو إليه فى إشراق :

ــ كل الإعجاب يا برهان ، إنها شىء رائع ، وبهذه المناسبة أحب أن أذكرك بالوعد الذى قطعته على نفسك . .

ــ أى وعد تقصدين ؟

ــ وعدك بأن يظل أمر حضورى وأمر اللوحة خافياً على الجميع وبصفة خاصة على . . .

فقاطعها ضاحكاً :

ــ على عديلة . . أليس كذلك ؟ . .

ــ نعم . . إنها ثرثارة كما قلت وأخشى إذا علمت بالأمر أن تفلت منها كلمة هنا أو هناك فتسوء العاقبة .

— كونى مطمئنة . . وبهذه المناسبة متى سيعود زوجك من لبنان ؟
— بعد عشرة أيام كما فهمت من رسالته الأخيرة . .
— حسناً يا نجوى ، بوسعنا أن ننتهى من الصورة قبل عودته بيومين أو ثلاثة على أكثر تقدير . ولكن أتدرين معنى ذلك ؟
— ماذا تقصد ؟
— أقصد أننى أخشى ألا تتاح لى بعد ذلك فرصة لرؤيتك ، وسنصبح فى حاجة إلى البحث عن سبب آخر يبيح لنا أن نلتقى كما نلتقى الآن . . .
— دع هذا للظروف . . والآن إلى اللقاء
— إلى اللقاء . . سأنتظرك غداً فى الساعة السابعة . .

وظلت عديلة ترقبهما وهى تعض شفتها من الغيظ والغضب ثم أخلت مكانها وتوارت عن الأنظار وهى تغلى كالمرجل . وقضت ليلتها تتقلب فى فراشها من لظى النيران التى كانت تتأجج فى صدرها ، وفى الصباح هرعت إلى منزل نجوى ودخلت عليها وهى تتكلف الهدوء وتتصنع الابتسام . فاستقبلتها نجوى بوجه تكسوه البشاشة وجلستا ودار بينها حديث استهلته عديلة بقولها :

— ما كنت أتوقع منك أن تهملينى إلى هذا الحد ، ما الذى دهاك يا نجوى ، لماذا قاطعتنى هذه المدة الطويلة ؟

فابتسمت نجوى فى رقة وقالت :

— لا شىء ، لا شىء مطلقاً ، كل ما فى الأمر أن مشاغلى هذه الأيام كثيرة ، ولكنى أعدك بأن أزورك قريباً جداً . . .
— متى ؟
— الأسبوع القادم إن شاء الله .
— ولماذا لا يكون الليلة ، لقد أتيت لأدعوك لحضور حفلة سأقيمها

الساعة السابعة ، فما رأيك . .

ـ أرجو المعذرة يا عديلة ، لا أستطيع الخروج الليلة لأنني متعبة جداً .

ولم تمكث عديلة بعد ذلك إلا قليلا من الوقت ثم خرجت وقلبها يعلو ويهبط من شدة ما استولى عليها من غضب ومقت وغيرة وكراهية .

وفى المساء خرجت نجوى والعطر يفوح من ثنايا ثوبها وقصدت إلى الأتيلييه ، وكانت عديلة ترقب منزلها فما إن وقع بصرها عليها حتى رفعت حاجبيها ولوت شفتيها فى غيظ ثم تبعتها بسيارتها دون أن تراها ، وحينما اقتربت من الأتيلييه توقفت وراحت ترقب من بعيد ما سيجرى بينهما ، وما هى إلا لحظات حتى رأت برهان يبرز من الباب ويستقبل نجوى فى عاطفة جياشة أذهلتها وجعلت وجهها يتقلص بغضاً وكراهية . ولبثت فى مكانها وقتاً إلى أن رأت خادم برهان وهو يغلق باب الأتيلييه والنافذة المطلة على الشارع وعندئذ تركت مكانها وعادت إلى منزلها وهى تتنفض من الغضب .

وحاولت عديلة أن تنام ولكنها لم تنم وراحت طول الوقت تجهد نفسها وعقلها فى تدبير خطة محكمة تشفى بها غليلها من غريمتها وتصل بها إلى هدفها .

وفى الصباح قضت عديلة وقتها فى صمت ووجوم ، كانت تفكر وتمعن التفكير فى الخطة التى سهرت طول ليلها فى تدبيرها ونسج خيوطها ، كانت ترى أنه ليس من العدل أن تحب برهان ثم تخسره بهذه السهولة ، كل ما عليها الآن أن تبحث عن عنوان زوج نجوى فى لبنان وتخبره بما يحدث فى الأتيلييه قبل أن تكتمل الصورة وتتوقف زيارات نجوى لبرهان ، وهكذا بدأت الفكرة تمد جذورها فى رأسها ولم يعد أمامها إلا أن تتصل بمقر شركة كمال لتقف على عنوانه ثم تبعث إليه بخطاب غفل من التوقيع تصور له فيه خيانة زوجته له أثناء غيابه .

وأمكنها بعد لحظات أن تعرف عنوان كمال ثم قامت إلى مكتبها وأمسكت قلمها وشرعت تكتب وهى تكاد تنشق من الغضب والغيظ الكظيم !

عزيزى الأستاذ كمال عبد المنعم

أستمحيك العذر من الكتابة إليك على هذا النحو من الغموض والإبهام ، كثيراً ما هممت أن أكتب إليك ولكنى كنت أحجم بعد إقدام لخطورة الموضوع الذى اعتزمت أن أصارحك به ، على أنى قررت أخيراً أن أكتب إليك مهما يكن من الأمر إرضاء للخلق والشرف والدين والضمير ، والآن ائذن لى أن أكون صريحاً معك ! إن الغواية محدقة بزوجتك واسم الشخص الذى أغواها وأضلها لا تعرفه ولكنى أعرفه وأعرف ما طبع عليه من خسة وضعة ونذالة ، إنه الرسام أحمد برهان ، وقد استطاع بدهائه أن يجتذبها إلى شراكه فى الأتيلييه المعروف باسمه فى شارع قصر النيل بحجة رسم لوحة لها ، وإزاء خطورة الموقف يقتضى واجبك نحو نفسك أن تعود على الفور قبل أن يقع حادث فظيع ، إذا استطعت المجيء قبل ثلاثة أيام أو أربعة فسوف تراهما معاً فى الأتيلييه بين السابعة والعاشرة مساء .

ناصح أمين

الفصل السادس

كان كمال جالساً فى بهو الفندق يطالع إحدى الصحف عندما وصلته رسالة عديلة فأخذها وفتحها على عجل ، وما إن ألقى على محتوياتها حتى تقلص وجهه وزاغ بصره وراح يتمتم بكلمات غير مفهومة . وتلا الرسالة مرة أخرى وأعاد التلاوة مراراً وصدره يعلو ويهبط من شدة الانفعال ، وأخيراً نهض من مكانه وأسرع إلى التليفون وطلب حجز مكان له بأول طائرة قاصدة إلى القاهرة .

وفى نفس اليوم الذى تسلم فيه كمال الرسالة استيقظت عديلة من نومها قبيل الظهر وبعد أن فرغت من تناول فطورها سرحت بتفكيرها بضع لحظات ، وكان تفكيرها كله مركزاً حول نجوى . والمصير الذى سينتهى إليه أمرها بعد وصول رسالتها إلى زوجها ، كانت تريد أن تتأكد أنها ستذهب إلى الأتيليه فى الموعد المحدد حتى تضمن تنفيذ الخطة التى رسمتها ولم يكن ثمة سبيل للتأكد من ذلك إلا بالاتصال ببرهان لتستشف منه الحقيقة دون أن تجعله يرتاب فى الأمر ، وما لبثت أن أمسكت بالسماعة وما إن سمعت صوته على الطرف الآخر حتى بادرته بقولها :

ـ صباح الخير يا برهان . . ألا ترغب فى الخروج الليلة ؟

ـ الخروج !! إلى أين ؟

ـ نذهب معاً إلى السينما ، أريد أن أرفه عن نفسى قليلا ، أتناسبك حفلة الساعة السادسة والنصف أم تفضل الساعة التاسعة . .

ـ لا أستطيع يا عديلة لأنني مرتبط بموعد مع بعض أصدقائي . .

ـ إذن سأحضر إليك لأراك لأنني لم أرك منذ أيام فاسمح لي بذلك وعدني بأن تفرغ لي لنتحدث طول الوقت فما من أحد يستطيع أن يرفه عني مثلك .

ـ ذلك يسعدني حقاً يا عديلة وما دامت هذه رغبتك فإنه يسرني أن أزورك لأنني مرتبط بموعد مع أصدقائي في حلوان .

ـ آه ، ذلك يسرني للغاية ، متى ستحضر ؟ . .

ـ الساعة الخامسة لأنه يتعين علي أن أكون في حلوان الساعة السابعة ، هل يناسبك هذا الموعد ؟

ـ للغاية .

ـ حسناً ، إلى اللقاء .

وما كادت تضع السماعة حتى هرعت إلى مخدعها وجعلت تستعرض ما في صوانها من أثواب وسرعان ما استقر اختيارها على ثوب أزرق وهو اللون الذي كانت تعلم أنه يؤثره على غيره . وبعد أن ارتدته قضت وقتاً أمام المرآة ثم خرجت تنتظره في الردهة ورأسها يموج بشتى الخواطر ، وحلت الساعة الخامسة ودق الجرس فخفق قلبها وأسرعت إلى الباب تفتحه بنفسها فواجهها برهان وما إن وقع بصرها عليه حتى انفرجت شفتاها عن ابتسامة غامضة ، وصافحته ثم أمسكت بيده وقادته إلى الداخل وشفتاها تختلجان . وجلسا في بهو صغير يتبادلان الحديث والابتسام ويتناولان كؤوس الشراب ، وعلى الرغم من أن كل شيء كان يغري بالمسرة فقد بدا على برهان الشرود والسهوم بيد أنه مع ذلك كان شديد التفرس في مفاتنها ، وتطرق الحديث إلى زوجها فأخبرته بأنه سافر إلى طنطا منذ يومين وعلقت على ذلك بقولها :

ـ أنصحك يا برهان ألا تتزوج . .

ـ لماذا ؟

ـ لأن جميع الأزواج والزوجات العاطفيين يندمون على ذلك بعد أشهر قليلة من زواجهم . .

ـ لا أعتقد أننى سأتزوج يا عديلة لأننى فنان ومن كان فناناً لا يحق له أن يتزوج . . .

ـ بكل تأكيد يا برهان ، وهذا ينطبق عليك أكثر مما ينطبق على أى فنان آخر . .

ـ وما السبب فى ذلك ؟

ـ لأنك ستجد دائماً من تحبك وتعوضك بحبها عن الزواج الذى يقوم فى رأيى على غريزة الملكية .

وسكتت لحظة ثم استأنفت تقول :

ـ هذه حكمة أخذتها عنك وهأنذا أطبقها فى حياتى معك ومع زوجى التعس المسكين .

ـ أإلى هذا الحد تؤمنين بما أقول ؟

ـ إلى أبعد حد يا برهان ، إن تأثيرك فى نفسى انتشر فى جو حياتى كالسم اللذيذ حتى لم يعد فى دنياى ما أحرص عليه سوى هذه الصلة التى تربطنى بك وتربطك بى . .

ـ أنا سعيد بهذه المجاملة يا عديلة ، إلى بكأس أخرى من فضلك .

وناولته الكأس وأحس بها تدنو منه فشخص ببصره إليها وهو مترامخ فى جلسته وابتسم لها ولكنه لم يقل شيئاً فاقتربت منه وأنشأت تعبث بشعره ثم جثت إلى جواره وأمسكت بيديه وضمتهما إلى شفتيها فسرت فى جسده رعشة قوية وسمعها تقول :

ـ أراك ساهماً على غير العادة ، فيم تفكر ؟

ـ لا شىء . . لا شىء مطلقاً ؟

ـ لا . لا ، لا بد أن يكون هناك ما يقلقك ، أنت غير طبيعى يا برهان ، هل حدث شىء ؟

ـ أبداً ، أبداً ، هل يبدو على شىء غير طبيعى ؟

ـ بكل تأكيد ، إن كل شىء فيك ينطق بذلك ، لابد أنك ترهق نفسك إرهاقاً شديداً . .

ـ هذا صحيح ، إن لدى أعمالا كثيرة لا تدع لى فرصة للراحة هذه الأيام . . .

قال ذلك ثم نظر إلى ساعته واستطرد وهو ينهض واقفاً :

ـ لا تؤاخذينى يا عديله . . يجب أن أذهب الآن . .

قال ذلك ثم طبع على خدها قبلة خاطفة وانصرف على عجل .

وعلى أثر خروجه ارتمت عديلة على إحدى الأرائك وأغمضت جفنيها واسترسلت فى التفكير . وكانت علاقة برهان بنجوى التى توضحت معالمها الآن فى ذهنها موضوع تفكيرها ، وطافت بمخيلتها صور من ماضيها مع برهان فعذبتها وأرهقتها وخفق لها قلبها كالمجنون ، لقد أحبت برهان حتى أصبح كل شىء فى حياتها وكانت تشعر بأنه يبادلها حباً بحب ولكن حبه لها لم يمنعه مع ذلك من أن يؤذيها بالإهمال والإعراض حين جاءته السعادة من مصدر آخر غير مصدرها . وفجأة جرى تفكيرها إلى نجوى فتوقدت عيناها واكفهر وجهها واضطربت أنفاسها وراحت تقول لنفسها : هل يمكن أن يهجرنى بسببها ، إن هذا إذا حدث فسيكون كارثة لا محالة .

ومرت بها ساعة كادت الخواطر المتلاطمة أن تصرعها وفجأة تذكرت رسالتها إلى كمال فانفرجت شفتاها عن ابتسامة عصبية وقالت لنفسها : ما هذا الهوس الذى انتابنى وما كل هذا التفكير فى نجوى ، إن كل شىء بين هذه الماكرة وبين برهان سينتهى إن لم يكن اليوم فغداً ،

ستنال على يد زوجها العقاب الذى تستحقه ، لقد أشقتنى وعذبتنى ويجب أن تشقى وتتعذب مثلى ، ولكن عذابها سيكون أفظع من عذابى وهذا عدل .

ولم تستطع عديلة أن تجد تبريراً لمعنى كلمة العدل هنا وحاولت بينها وبين نفسها أن تزن صدقها أو خطأها وأخيراً وجدت أن فكرتها لا صلة لها بأى مبدأ من المبادئ لأن كلا منهما فى نظرها كانت متجردة من المبادئ وأن كل ما فى الأمر أن الإنسان يضايقه أن يرى غيره يشاركه عيوبه ويعتدى على اختصاصاته .

ولما خرج برهان من منزل عديلة توجه رأساً إلى محلات جروبى وأمضى هناك بعض الوقت ثم خرج ومعه مجموعة من اللفائف إذ كان قد اتفق مع نجوى على أن يتناولا العشاء معاً فى تلك الليلة فى الأتيلييه احتفاء بقرب الانتهاء من الصورة لذلك قضى بقية النهار تغمره غبطة غاشية .

وحين وصل إلى الأتيلييه استدعى خادمه «درويش» وسلمه اللفائف وهو يقول :

ـ هيه ، ماذا أعددت لنا من طعام ؟

ـ أشياء كثيرة ، كن مطمئناً . .

ـ حسناً ، ضم ما فى هذه اللفائف إلى الألوان التى أعددتها ليكون العشاء فاخراً . .

وسكت لحظة ثم استطرد :

ـ أظن من الأفضل أن أذهب معك لأرى كل شىء بنفسى .

وذهب معه إلى غرفته الخاصة وأخذا يفضان اللفائف ويرتبان محتوياتها فى الصحون والصحاف ، وبعد ربع ساعة بدت المائدة حافلة بشتى الألوان الشهية المغرية .

وخرج برهان بعد لحظات وقصد إلى ركن فى قاعة العرض حيث استقرت صورة نجوى ووقف يتأملها فأخذه شعور غامر من العجب والإعجاب وشاعت فى محياه على أثر ذلك ابتسامة الرضا ثم ترك مكانه وأشعل سيجارة وجلس على مقعد وهو يتنهد وفجأة وقعت عينه على صورة عديلة فاستولى عليه شعور غامض من القلق والاضطراب ولاحظ خادمه ما بدا عليه من ضيق فقال وهو يضع أمامه فنجاناً من القهوة :

ـ ماذا بك يا أستاذ ؟ أتشعر بشىء ؟

ـ كلا ، ليس بى شىء . .

ورمقه بنظرة طويلة ثم قال :

ـ اسمع يا درويش ، إذا حدث وجاءت عديلة فاصرفها فى الحال ، وإذا سألت عنى بالتليفون فأخبرها بأنى لست موجوداً ، أسمعت ؟

ـ كن مطمئناً يا أستاذ . .

ـ وعليك أيضاً أن تصرف كل زائر يجيئنى الليلة .

ـ أمرك يا أستاذ .

ولم تكد تدق الساعة السابعة حتى أقبلت على الباب سيارة نجوى فخفق قلب برهان وأسرع إليها مشرق النظرات واستقبلها فى حفاوة بالغة ثم قادها إلى الداخل وهو يغمغم بعبارات الترحيب .

الفصل السابع

وقفت نجوى أمام صورتها تتأملها معجبة مزهوة وبعد أن تبادلا الابتسام وعبارات الإعجاب خفت نجوى إلى القاعدة الخشبية واتخذت مكانها أمام برهان وهى تحس شعوراً من الغبطة ينبعث من أعماق قلبها فيشيع بين حناياها .

وانهمك برهان فى عمله وخيم على المكان صمت مطبق فما كان يسمع إلا حفيف الفرشاة على اللوحة وبين وقت وآخر كانت تسمع خطوات برهان وهو يتراجع ليمتحن عمله من بعيد . وتوقف بعد لحظات وراح ينقل بصره بين نجوى وبين الصورة وأخيراً التفت إليها وقال فى ابتهاج :

— لقد انتهت الصورة يا نجوى ، انظرى

وكانت نجوى مسترسلة فى أحلامها فتنبهت لنفسها وهبطت من مكانها وقالت مبهورة الأنفاس :

— هل انتهت حقاً ؟

فأجابها وهو يأخذ يدها ويشد عليها مصافحاً :

— نعم . . اكتملت تماماً يا نجوى .

فتوردت وجنتاها من فرط السرور وفاضت عيناها بالابتهاج كأنها تقف على حقيقة جمالها لأول مرة وفيما كانت تتأمل بهاءها وهو يشع من اللوحة ضغط برهان على يدها وقال :

— دعينى أهنئك وأشكرك . .

فأجابته وعيناها تزدادان إشراقاً :

— بل الشكر لك يا برهان ، إنها حقاً صورة رائعة .

ومن فرط سرورها تركت له يدها فرفعها إلى فمه وهو يقول :

— أتسمحين . .

وطبع على يدها قبلة أودعها كل ما يشعر به من وجد وحب وإعجاب .

وجلسا بعد ذلك على أحد المقاعد ، وبعد لحظات أقبل عليهما درويش ودعاهما لتناول العشاء فالتفت برهان إلى نجوى وقال :

— لقد أعد لنا درويش عشاء بدلا من الشاى ، أتمانعين ؟

— لا أستطيع أن أرفض . . الأمر إليك . .

— إذن هيا بنا . .

وجلسا إلى المائدة وشرعا يتناولان الطعام وامتد بهما الوقت يطعمان تارة ويتحدثان تارة أخرى وعلى حين بغتة سمعا جلبة فى القاعة الخارجية ، وفى اللحظة التالية دخل عليهما درويش منزعجاً وأخبرهما بأن رجلا لايعرفه اقتحم الباب عنوة وهشم صورة نجوى فى ثورة جنونية وأنه فى طريقه إليهما فتملكهما الخوف والاضطراب وصاح برهان فى درويش محتداً :

— ولماذا سمحت له بالدخول ؟

وكان درويش على وشك أن يفتح فمه عندما سمعوا صوتاً مثيراً يقترب من باب الغرفة ويقول :

— لقد سمحت لنفسى بالدخول أيها الوغد لأن هذا من حقى . .

فالتفتت نجوى وبرهان إلى الباب وهما يرتجفان وفى اللحظة التالية كان كمال ينتصب أمامهما وعلى وجهه سحابة قاتمة مخيفة جعلته أشبه بشبح شيطانى . وكانت اللحظة التالية دهراً ، وتقدم كمال خطوتين إلى الأمام وقال وهو يحدج زوجته بنظرة مخيفة ملتهبة :

ـ إذن فقد صدق الرجل الذى كان يراقبك أيتها العاهرة . .

فوقفت نجوى هنيهة مصعوقة ثم قالت وهى تنتزع الكلمات فى جهد :

ـ أنا لست خائنة . . أقسم لك أنى لم أخنك . .

فصاح مزمجراً :

ـ وماذا تسمين هذا إذن يا فاجرة ؟

فتدخل برهان قائلا :

ـ ثق أن ما قالته زوجتك هو عين الصدق ، إن زوجتك مثال النقاء والشرف وحرام أن ترميها بهذه التهمة ، أما ما تراه فلا يعدو أن يكون حفلا اعتدت أن أقيمه لكل شخص أنتهى من رسم لوحة له . .

فاتقدت عينا كمال وقال والغضب يرعد شفتيه :

ـ هل تظننى غبياً أصدق هذا الكلام أيها المخادع . .

فاحتقن وجه برهان وقال فى غضب :

ـ أنا لست بالرجل المخادع ، زن كلامك من فضلك قبل أن تنطق به . .

وتواقف الشابان لحظة وجهاً لوجه صامتين يرمق كل واحد منهما غريمه بنظرة ملتهبة على حين لاذت نجوى بركن من أركان الغرفة وهى ترتجف من شدة الارتياع وفجأة تحول كمال عن برهان وهو يدمدم قائلا :

ـ ليس لى شأن بك . . إنها وحدها المسئولة عن ذلك . .

وفى مثل خطفة البرق هجم على نجوى واندفع يكيل لها اللكمات فى ثورة جنونية عاتية فصرخت وتراجعت مذعورة وهى لاتدرى ماذا تفعل ، وما إن رأى برهان الدماء تنزف منها وتلطخ وجهها وملابسها حتى نسى كل شىء وانقض على كمال وهو يصيح محذراً ثم مد إحدى يديه وطوق بها كمال بينما أطفأ النور بيده الأخرى ، وكافح كمال حتى تخلص منه

ثم انقض عليه بكل قوته وأخذ الشابان يترنحان فى الغرفة وقد التصق كل منهما بالآخر على حين شغل درويش بإغلاق النوافذ حتى لا تصل أصوات المعركة إلى الجيران . واستبد الذعر بنجوى لحظة وأخيراً انتهزت فرصة الظلام الذى ساد الغرفة وأسرعت إلى الباب ثم انطلقت إلى خارج الأتيلييه وهى فى أشد حالات الهلع والاضطراب .

وعلى أثر خروجها استطاع درويش بعد جهد جهيد أن يفصل بين الشابين وأضاء المصباح فإذا كل منهما يتخذ موقف مصارع يدافع عن نفسه ، ولم يحدث بعد ذلك شىء بينهما ، وإنما وقف كل منهما يرمق غريمه بعينين يتطاير منهما الشرر وأخيراً تحرك كمال ناحية الباب وهو يقول مزمجراً متوعداً :

ـ سأعرف كيف أسوى حسابى معك .

وما كاد يختفى حتى ارتمى برهان على مقعده خائر القوى لا يقوى على الحراك .

وانطلق كمال بسيارته فى شوارع القاهرة يشق طريقه نحو منزله ولما وصل إلى هناك لم يجد نجوى فعاد بسيارته وقصد إلى منزل أبويها وهو يهتز من الغضب ، وكانت نجوى قد سبقته إلى هناك وقصت على والديها جانباً مما حدث ، فلما علمت بوصوله أسرعت وخبأت نفسها فى ردهة مجاورة لغرفة الاستقبال وانتظرت هناك وقلبها يدق بعنف .

ودخل والد نجوى وفى أعقابه أمها وقد بان على وجهيهما القلق والعبوس فنهض كمال وحياهما بفتور وقال :

ـ هل نجوى هنا ؟

فأجابه أبوها فى اقتضاب .

ـ نعم ، لقد جاءت منذ دقائق .

ـ وهل أخبرتك بما حدث ؟

فصمت الرجل لحظة ثم قال فى جفوة دون أن يلتفت إليه :

— نعم ، لقد أخبرتنى بكل شىء وقد لمتها على تصرفها ولكنى غير راض عن تصرفك معها لأننى أعرف ابنتى حق المعرفة . .

فاحتقن وجه كمال وقال فى اهتياج :

— راض أو غير راض ، هذا لا يغير الوضع الذى أصبحنا فيه .

فقال الرجل فى صوت كظيم :

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أننى لا أستطيع أن أعيش مع ابنتك بعد اليوم .

فتجهم وجه الرجل وقال فى خشونة :

— إنك تعلم تماماً أننى لا أضمر لك أى شعور طيب وأننى لم أوافق على زواجك من نجوى إلا نزولا على رغبتها لأننى كنت وما زلت أعتقد أنها ستشقى معك وها قد صدق حدسى .

فأجابه كمال مهتاجاً :

— أتشتمنى . . هذه إهانة . .

— إهانة أو غير إهانة ، هذا هو رأيى . .

وتوقفا عن الكلام لحظة وكل منهما ينظر إلى الآخر نظرات شذراء ملتهبة على حين حاولت أم نجوى التدخل بينهما حتى ينتهى الأمر بينهما إلى سلام ، فأمسكت بيد كمال وقالت ملاطفة :

— هدئ روعك يا بنى . . كيف يخطر ببالك أن نجوى ترتكب عملا غير شريف . . محال يا كمال محال . .

فسل يده من يدها فى عنف وهو يقول :

— محال أو غير محال ، إننى لن أعيش معها بعد اليوم ، هذا هو قرارى الأخير . .

فاتقدت عينا الرجل وقال :

– إنى مستعد على شرط . .

– ما هو ؟

– إذا طلقتها فعليك أن تأخذ ابنتك معك حتى تنقطع كل صلة تربطنا بك . .

فأجابه قائلا :

– هذا يسرنى كل السرور ، لأن عفاف لا يصح أن يكون لها أم كهذه الأم .

فقام الرجل مهتاجاً يقول وهو يشير إلى الباب :

– اخرج يا وقح . . اخرج .

وما لبث أن أفضى هذا النزاع إلى عواقبه الخطيرة فما هى إلا أيام حتى حضر إلى منزل والد نجوى أحد رجال الشرطة وطلب مقابلة نجوى ، فلما حضرت سلمها ورقة الطلاق فأمسكتها وقتاً تحدق فيها دون أن تتحرك ، وما إن انصرف الرجل حتى تهاوت على مقعد قريب تخنقها العبرات .

الفصل الثامن

وكانت الصدمة على أم نجوى شديدة ، وكانت المرأة على حظ من حسن الإدراك يضاهى حظها من الطيبة والورع والتقوى ، وإذ كانت على بينة بأن ابنتها تحمل جانباً من المسئولية التى أدت إلى الانفصال وعلى بينة أيضاً من أن « كمال » يشاركها هذه المسئولية لإهماله إياها وتقصيره فى ذاتها وفى حقوقها ، فقد ظنت فى بادئ الأمر أن هذا الصدع يمكن تلافيه بشىء من التوجيه والتبصير بحقيقة الحياة الزوجية وما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الرجل والمرأة ، وفى ضوء هذا التفكير عولت على أن تعيد الصلة بين الزوجين وتوسلت لذلك بكل الوسائل ولكن زوجها رفض الصلح رفضاً باتاً كما رفض كمال العودة وأسرف فى الرفض وفى الغضب وفى عدم الاكتراث .

وبذلك انقطع كل أمل فى الصلح وعاشت نجوى مع أبويها مقسمة الوقت والحياة بين اللوعة على المصير الذى انتهى إليه أمرها ، والضيق بالعزلة والصمت المروع اللذين يكتنفان حياتها .

أما كمال فبعد أن فصم العروة التى كانت تربطه بنجوى عول على أن يرحل مرة ثانية إلى لبنان لاستئناف العمل فى مشروعاته من جهة ، وللتغلب على حالة القلق التى انتابته بعد الطلاق من جهة أخرى . ورأى قبل سفره أن يزور أمه ويقضى معها ومع ابنته بعض الوقت علّ ذلك يساعده على التخفف من بعض الآلام التى تجثم على صدره . وفى صباح يوم ركب سيارته وانطلق بها فى طريقه إلى بلدته ، وفى الطريق

ظل طول الوقت شارد الفكر موزع النفس وفجأة جرى تفكيره إلى نجوى فغلبه العياء وتولته الحيرة ، وكان مصدر حيرته شعوره بأنه ظلم نجوى بعد أن أجمع الجميع بما فيهم برهان نفسه على طهارتها ونقائها ، وكلما تصرم الوقت واستعرض الخواطر التى حفزتها إلى المسلك الذى سلكته شعر بالألم يضغط قلبه ضغطاً ، ولكن هذا الشعور ما كاد ينفذ إلى نفسه حتى داهمه شعور آخر من السخط والغضب ما لبث أن محق أمامه كل شعور طيب نحو زوجته .

ولم يكن كمال قد أخطر أمه بعودته فأثار وصوله جو القرية وكانت أمه تعنى ببعض طيورها فى الحديقة فلما أحست بوصوله خرجت من خلف سور تغطيه الأغصان وأسرعت إليه وما كادت تتأمله حتى تراجعت إلى الوراء خطوة وسألته فى دهشة :

— ماذا بك يا كمال ؟ أأنت مريض ؟

— كلا لست مريضاً ، ولكنى متعب للغاية . .

— ومتى عدت ؟

— منذ أيام قليلة .

— منذ أيام قليلة !! ولماذا لم تخطرنى ؟ وأين نجوى ؟ لماذا لم تحضرها معك ؟ . . .

— هى فى منزل أبويها وقد جئت على عجل إذ أنوى العودة إلى لبنان .

— شد ما تفاجئنا يا كمال ، ولماذا حضرت إذن ، إننى أراك على غير ما أعهد ، ماذا حدث ؟

فقادها إلى الداخل ثم جلس إلى جوارها وقال فى صوت متهدج يغص بالمرارة :

— أمى ، لست أدرى كيف أقص عليك ما حدث . .

فقالت وقد هدتها غريزتها إلى السبب الذى يحتمل أن يؤدى إلى ذلك الغم المتمثل فى عينى ابنها :

ــ هل تغاضبتما مرة أخرى ؟

ــ نعم ، ولكن هذه المرة لم تكن مغاضبتنا عادية ، لقد طلقتها . .

فشهقت المرأة وضربت صدرها بيدها قائلة :

ــ طلقتها !! أتقول طلقتها ! يا إلهى ، لم أكن أحسبنى أعيش حتى أسمعها منك ، وأى شىء فعلته نجوى يستحق أن تطلقها من أجله .

وسكت كمال لحظة وبعد لأى سرد عليها قصة ذهابها إلى برهان لرسم صورة لها ولكنه لم يشأ أن يقص على أمه جميع التفاصيل حتى لا يحط من مكانة نجوى فى نظر أمه وحتى لا يزيد الأمور فساداً وتعقيداً واكتفى بتصوير الحادث على أنه عمل أقدمت عليه دون استئذانه وأن الأمر تطور بعد تدخل أبيها وانحيازه إلى صفها وإهانته له .

فنظرت إليه وقد اكفهر وجهها وقالت :

ــ إذا كان والدها قد أهانك فهذا شىء لا أرضاه طبعاً .

ــ إنه لم يكتف بإهانتى بل طردنى شر طرد وحرم علىّ وعلى عفاف أن نطأ باب منزله مرة أخرى .

فقطبت جبينها وقالت :

ــ هذا يجعل للموضوع شأناً آخر ، ولكن ما ذنب نجوى وما ذنب عفاف ؟

ــ موضوع نجوى لا ينبغى التفكير فيه الآن أما عفاف فستظل معك ، فما رأيك ؟

فسكتت وظلت مطرقة مثقلة الأجفان بالألم ثم قالت :

ــ إنك تعلم مكانة عفاف من قلبى ولكنى أشفق عليها من مرارة فراقها لأمها .

— أنا أعلم ذلك ولكن ما حيلتنا ، ومع ذلك فليست عفاف بأول من ابتلى بهذه الكارثة فقد عاناها قبلها ألوف .

وبعد يومين ودع كمال أمه وابنته وعاد إلى القاهرة ليعد عدته للرحيل إلى لبنان وفى نفسه من الهموم والآلام ما فيها .

وعندما وصل إلى منزله الذى شهد أسعد لحظات عمره وأبشع كارثة نشرت ظلها على حياته ثارت فى نفسه عواطف متضاربة ، وكان قد منح خدمه إجازة لحين عودته من لبنان فظل فى حجرات المنزل وحده وصعد إلى الطابق العلوى إلى مخدعها الذى لم يصبح بعد مخدعها ووقف وسط الحجرة يجول فيها بعينيه فوقع بصره على صورة نجوى فوق منضدة صغيرة فانتزعها من مكانها ورمى بها إلى الأرض وسحقها بقدميه ، ووقف برهة صامتاً متجهماً ثم ارتمى على مقعد وبدأ يفكر وساءل نفسه مرة أخرى إن كان قد سلك فى ذلك الأمر مسلكاً حكيماً ، وعض الندم قلبه حين تذكر أيام سعادته الأولى معها فبدأ يلوم نفسه على قسوته تارة وعلى تقصيره فى ذاتها تارة أخرى ولكنه ما لبث أن نهض من مكانه وهو ينفض عن رأسه شعور التخاذل والضعف الذى انتابه وهو يقول لنفسه :

— ما كل هذا التفكير فيها ، ألم ينته كل شىء بينى وبينها ؟ لقد أشقتنى شقاء لا مزيد عليه ، إن حياتى لأثمن من حياتها ، وإذا كانت قد أسعدتنى لحظات فقد أشقتنى دهراً طويلا . .

وسمع وقع خطوات عند مدخل المنزل فمشى إلى النافذة وأطل منها فإذا بالباب امرأة لم تكد ترفع رأسها حتى تبين وجه صديقة زوجته عديلة ، وما إن لمحته حتى بادرته قائلة :

— لقد جئت أزوركما وأستفهم إن كنتما بخير بعد أن انقطعت نجوى عن زيارتى مدة طويلة . .

فأجابها :

ـ أهلا وسهلا . . أنا وحدى هنا . .

ـ وأين نجوى ؟

ـ فى منزل أبيها .

ـ ومتى ستعود ؟

فنزل وفتح لها الباب وحياها وقادها إلى البهو وجلس إلى جوارها ثم أخبرها فى اقتضاب بما حدث فتصنعت الجزع والدهشة وصمتت لحظة لدى سماعها نبأ الطلاق وفجأة صعدت إلى رأسها فكرة اضطربت لها أشد اضطراب وهى أن الطلاق الذى لم يكن فى حسبانها وهى فى سورة غضبها قد يؤدى إلى توثيق صلة برهان بنجوى وقد يهيئ لهما أسباباً لم تكن مهيأة لهما من قبل. وتسلطت عليها هذه الفكرة لحظات وأخيراً تنبهت إلى نفسها حين سمعته يقول :

ـ لا تهتمى بأمرها كل هذا الاهتمام ، إنها لا تستحق إلا الزراية والاحتقار .

فقالت وهى تتصنع الأسى :

ـ كيف لا أهتم ، إنها مأساة محزنة حقاً . .

ـ لا ريب فى أنها كذلك .

ـ خبرنى ، ألا يمكن أن تكون واهماً ؟

ـ لا يمكن ، لقد رأيت كل شىء بعينى . .

ـ كيف ؟

فحدثها عن المشهد الذى رآه حين داهم الأتيلييه ، وما إن انتهى من كلامه حتى التفتت إليه وقالت وكأنها تحدث نفسها :

ـ هذا لا يكفى لاتهامها وسوء الظن بها ، إنها مجرد مجاملات تصدر دائماً عن برهان كلما انتهى من رسم صورة تنال رضاءه ، إننى أقول

ذلك عن خبرة لأننى أعرفه .

فدمدم قائلا :

— أف لك ، حتى أنت لا تصدقين ما أقوله ولا تبغين أن تريحينى . .

— إننى أقول ما يمليه على ضميرى . .

ونهضت بعد لحظة تبغى الانصراف فقال لها :

— أعائدة أنت إلى منزلك ، يمكننى أن أصحبك إلى هناك فى سيارتى إذا أحببت . . .

فشكرته وركبت معه وفى الطريق سألها :

— خبرينى يا عديلة ؛ ألا يفعل ذلك أى رجل فى مثل ظروفى .

وكانت فى ذلك الوقت لا تفكر إلا فى شىء واحد وهو أن تدبيرها الذى انتهى إلى انفصال نجوى عن زوجها لا يمكن أن ينتهى إلى الغاية التى كانت تريدها ، لأن الطلاق من شأنه أن يمنح نجوى وبرهان الوقت والفراغ لبعضهما ، إن نجوى بلا شك ستجد حرية لم تكن تجدها وهى زوجة وستحس فراغاً ستعمل جاهدة على أن تملأه ، ومعنى ذلك أن الأمر سينتهى شيئاً فشيئاً إلى عكس ما كانت تريده عديلة . وبدافع من هذا التفكير وجدت نفسها تقول له :

— أعتقد أنك تسرعت يا أستاذ كمال ، إن نجوى سيدة شريفة لا يمكن أن تتورط فى إثم كما توهمت ، وأعتقد أنك عاملتها بقسوة لا تستحقها ، ومن الخير أن تعود إليها وأن تعود بأسرع ما يمكن قبل أن يستفحل الأمر ويستعصى على العلاج . وعليك بعد أن تعود المياه إلى مجاريها أن تصونها وتحميها وتحول بينها وبين الاتصال بالرجال لأن زوجتك جميلة وجمالها خليق أن يفتن ويروع ، فإذا وافقت على رأيى فإنى أرجو أن تعدنى نصيرة صادقة الرغبة فى خدمتك وخدمة نجوى

ولن يخيب ظنك فى إذا عولت على . .

فقال فى صوت مكبوت :

ــ أشكرك ، ولكنى على أية حال لا أستطيع أن أعود إليها ، لقد انقضى الأمر وأصبح من المستحيل أن نستأنف الحياة معاً من جديد . .

ــ هل يسوءك أن أتدخل .

ــ أرجوك ألا تتدخلى . . إن المسألة بالنسبة لى أصبحت مسألة كرامة ومن واجبى أن أحافظ على كرامتى . .

ــ إن نجوى فيما أعلم لم تمس كرامتك بسوء والذى أعلمه أنك كنت البادئ بالإساءة منذ زواجكما . .

ــ كيف ! أقالت لك شيئاً عنى ؟

ــ لقد كانت دائماً تشكو من إهمالك إياها وتقصيرك فى ذاتها وربما كان هذا هو السبب الذى دفعها إلى التبرم من عيشتها فى الأيام الأخيرة . .

ــ إننى لم أهملها إلى الحد الذى تتصورينه ، لقد كانت تريد منى أن أعيش معها كما كنا نعيش فى شهر العسل ، أليست هذه تفاهة ، هل جربت ذلك فى حياتك الزوجية ؟

فضحكت وقالت فى مرارة :

ــ للأسف لم أجربه لشىء واحد .

ــ ما هو ؟

ــ هو أننى تزوجت كما تعلم رجلا فى سن أبى ولذلك لم أشعر بمذاق لما يسمونه شهر العسل .

فقال متأففاً وهو ينظر إلى بعيد :

ــ ويلنا منكن معشر النساء ، مهما نعطكن فنحن دائماً دون ما تطلبن .

ولما وصلا إلى منزل عديلة هبطت من السيارة ومدت إليه يدها

مصافحة فقال لها :

— عديلة . . أريد منك شيئاً قبل أن أرحل إلى لبنان . .

— ما هو ؟

— أريد أن تنصحيها متى رأيتها أن تستقيم ولا تنقاد للحماقة من أجل ابنتها لا من أجلى ، فهل تعدينني بذلك ؟

— نعم أعدك . .

وعلى أثر ذلك حياها وانطلق بسيارته قاصداً مقر شركته وهناك قضى بضع ساعات فى تصريف شئون الشركة مع وكيل أعماله ، ولما فرغ من تلك الشئون عاد أدراجه إلى منزله .

وفى صباح اليوم التالى ذهب إلى المطار واستقل الطائرة إلى لبنان .

الفصل التاسع

كان كمال يأمل أن يجد فى لبنان هذه المرة ما اعتاد أن يجده فيه من الراحة والهدوء والبهجة ، كان يحسب أن انتقاله إلى هذه البيئة الحلوة كفيل بأن يعيد السكينة إلى نفسه ،ويبدد الآلام والأحزان الممضة التى أدمت قلبه ومزقت فؤاده ، ولكن كل ما كان حوله لم يستطع أن يبرئ نفسه من حيرتها ،أو يشغله عن التفكير فى مأساته ، فلما لم تغن البيئة عن هذا التفكير تكلف شيئاً من النشاط فانهمك فى العمل والسعى وراء الصفقات ولكنه كان يرجع إلى الفندق فى كل مرة كما خرج منه مفرق النفس شارد الفكر ، مضطرباً بين الثورة والغضب على نجوى وبين الشوق والحنين إليها ، وأخيراً استكشف فى أعماق قلبه وضميره أنه ما زال يهواها ، وما إن تبين هذه الظاهرة الصامتة المستخفية حتى امتلأ قلبه سخطاً على نفسه وثورة على ضعفه . وكذلك أنفق أيامه حليف نضال مروع بين كبريائه وبين عواطفه ،وأصبح كل همه محصوراً فى دفع هذا الهيام الحلو البغيض الذى كان يتربص به فى كل ساعة من ساعات نهاره وليله ويريد أن يغزو قلبه وينفذ إلى أعماق شعوره ليصرفه عما أخذ نفسه به ، ويشغله عن ذلك بمن يهوى ويحب .

ولما عجز كمال عن مقاومة هذا الشوق الغريب الذى كان يحبه ويبغضه فى وقت واحد ، اختل مزاجه ومال إلى الخمر ظاناً أنه يجد فيها شفاء لهمومه فتناول منها كاسات ثم استساغها وأمعن فى شرابها وأحب ألا يفيق منها حتى لا يواجه أفكاره المؤلمة ووحدته المظلمة والحياة القاتمة

التى يحياها . وإمعاناً منه فى النسيان أخذ يتردد على الحانات والأندية الليلية يلهو فيها ويشرب ويلعب القمار حتى نفد ما معه من نقود ، فأرسل إلى وكيل أعماله فى طلب المال فبعث إليه بمبلغ كبير سرعان ما بدده وكان هذا هو مصير كل الدفعات التى أرسلت إليه بعد ذلك .

وتعاقبت أسابيع وكمال يحيا هذه الحياة الشاذة الغريبة . كان يحس كأنه يعيش تحت تأثير مخدر لا إفاقة له منه وكان يرى فيما حوله ضباباً لا يستطيع أن يرى فيه إلا اليوم الذى يعيش فيه أما الغد فلم يكن ثمة سبيل إلى استشفافه أو التفكير فيه .

ووسط هذا الضباب وتحت تأثير ذلك المخدر لم يكن يحس تذمراً أو استنكاراً يثير فيه روح المقاومة ، ولم يكن ليضيق بشىء كما كان يضيق بتلك الرسائل التى كانت تأتيه بين وقت وآخر من وكيل أعماله تحمل نذراً مخيفة منذرة عن تدهور حال الشركة وسوء مركزها المالى .

ثم انقضى الربيع والصيف فى سرعة وأصبح من المحتم أن يغادر المصطافون لبنان وبدأ كثير من رجال الأعمال يعودون إلى بلادهم . وفى صباح أحد الأيام تسلم كمال رسالة من وكيل أعماله ينطوى كل سطر من سطورها على كلمات يائسة منذرة تصور سوء حالة الشركة أبشع تصوير وتدعوه إلى ضرورة العودة على عجل لإنقاذها من الخطر الداهم الذى يتهددها على أيدى الدائنين .

وما كاد مضمون الرسالة يستقر فى ذهنه حتى أحس كأنه يستيقظ من حلم مروع مخيف . وفى اليوم التالى غادر لبنان تتنازعه شتى المشاعر والهواجس والأفكار .

ولما وصل إلى القاهرة بادر بالذهاب إلى مقر شركته وهناك وضح له خطورة الموقف المحدق به وبتجارته بسبب توقيع الحجز على شركته من قبل البيت التجارى الذى كان يتعامل معه . وكان لهذا الموقف العصيب

وقع الصاعقة على نفسه ولكنه تماسك وقرر أن يواجه الأمور بنفس العزيمة التي كان يواجه بها المشاكل أيام وجود نجوى معه ، فغادر مقر شركته فوراً وأخذ طريقه مسرعاً إلى البيت التجارى لمقابلة مديره . واستقبله الرجل فى شيء من الفتور وأبدى له شديد أسفه لانتهاء علاقته التجارية معه ولعدم استطاعته إمهاله إلا أياماً معدودة حرصاً على أموال البيت من الضياع . واستقبل كمال هذه الكلمات وهو يتظاهر بالتجلد حتى لا يبدو على وجهه شيء من الضعف واليأس والاستخذاء ولكنه ما كاد يغادر المكان حتى شعر برعدة قوية هزت كيانه وأسلمت رأسه لدوار عنيف كاد يفقده سلطانه على نفسه .

وحاول بعد ذلك أن يفعل شيئاً ينقذ به نفسه من الضياع فباع منزلا كان يمتلكه فى العباسية ولكن ثمنه لم يمكنه من الخروج من المأزق الخطير ، والفكاك من الأزمة العصبية التي كانت تمسك بخناقه .

وظل بضعة أيام مضطرب النفس شارد الذهن وحيداً مع نفسه ومع الظلال المخيفة التي كانت تحدق به من كل جانب . وفى غمرة تفكيره المؤلم رأى أنه من الخير له أن يتمالك نفسه ليستطيع مواجهة الكارثة فى شيء من هدوء النفس وصفاء الذهن ، وعلى هذا قرر السفر إلى بلدته للراحة والتماس المشورة والعون من أمه .

ولما وصل إلى منزل أمه أسرعت إليه وحيته قائلة :

ـ أهلا بعودتك أخيراً . .

ولم تكن فى تلك اللحظة قد تأملته جيداً فى غبش الظلام فلما دققت النظر إليه راعها شبحه الهزيل المتغضن ،وهالتها الغضون التي تبوأت وجهه قبل الأوان وسألته فى جزع :

ـ ماذا بك يا كمال ؟ إن من يراك لا يعرفك .

فأجابها وهو ينتزع الكلمات من شفتيه الجافتين :

— لقد كنت مريضاً أما الآن فقد عوفيت . .

على أن ساقيه كأنما أرادتا أن تكذباه فاختلجتا وما لبث أن ارتمى على كرسى ليتفادى السقوط ثم سألها :

— أين عفاف ؟ أريد أن أراها . .

— إنها نائمة ، أتحب أن أوقظها ؟

— كلا . . دعيها تستريح . .

وسرعان ما أوى إلى فراشه وفى غداة الغد شعر بوطأة التعب فظل طول يومه فى فراشه يتحدث مع أمه تارة ويداعب ابنته تارة ويترك العنان لأفكاره أخرى .

وأمضى الليلة الثانية ساهد الجفن ، قلق النفس ،وفى غمرة تفكيره طار بخياله إلى نجوى وجعل يعرض ما كان من أمره معها وعجب من نفسه مرة أخرى كيف تخلى عنها فى غير حكمة وروية ،وكيف طلقها بلا تدبير ولا تقدير ، لقد كان طلاقها كارثة عليه وربما كانت هذه الكارثة بمثابة عقاب أنزلته به السماء لأنه ظلمها ونسب إليها تهمة هى منها براء . واختلج على أثر ذلك اختلاجة شديدة وجلس فى فراشه وهو يعصر جبينه بيده . وفى الصباح حاول أن ينحى عن خاطره طيف نجوى الذى لازمه طول الليل ولكنه لم يستطع له دفعاً وفجأة استبدت به نوبة بكاء فأسند رأسه على راحتيه واسترسل فى البكاء كما يفعل الأطفال .

ودخلت عليه أمه فى هذه اللحظة فما إن رأته على هذه الحال حتى سارعت إليه فى جزع وقالت فى صوت متهدج يفيض بالعطف واللهفة والحنان :

— كمال ! ! أ أنت تبكى ، ما الذى يبكيك يا بنى . .

ودنت منه وأخذت برأسه توسده صدرها ، فانكب على صدرها كما ينكب الطفل على صدر أمه ينشد فيه الأمن والطمأنينة .

وقضى فترة لى صدرها حتى ثاب الهدوء إلى نفسه وأخيراً اعتدل فى مقعده وقد تاه خاطره فى آفاق شتى ، وظلت أمه تتحدث إليه فى صوت رقيق وبعد لحظة سمعها تقول :

ــ لماذا تخفى عنى همومك ، خبرنى يا كمال هل لنجوى صلة بما أنت فيه ؟

فاضطرب اضطراباً شديداً وقال متهدج الصوت :

ــ نعم ، وإنه ليخجلنى أن أصارحك بأننى ما زلت أحبها رغم كل ما بدر منها .

فنظرت إليه وعلى وجهها سمات الطمأنينة وقالت فى ثقة ويقين :

ــ وفيم الخجل ، إننى ما زلت عند رأيى فى أن نجوى لم تفعل شيئاً وأنها جديرة بحبك ، هذا هو شعورى الخاص وشعورى لم يكذبنى فى يوم من الأيام ،ومن أجل ذلك لم يكن ضميرى مرتاحاً لتصرفك القاسى معها . .

فنظر إليها بعينيه المكدودتين وقال :

ــ أعترف بأننى تسرعت ولكن ما العمل .

ــ لا عليك يا ولدى ، دع هذا الأمر لى . .

فتطلع إليها فى لهفة وقال :

ــ ماذا تنوين أن تفعلى ؟

ــ سأذهب إليها لمصالحتها ومصالحة والديها . .

ــ ولكنى تركتهم فى ظروف تجعل من الصعب أن يقبلوا الصلح معى وربما أدى ذلك إلى أن يعرضوا بك ويسيئوا معاملتك . .

ــ لا أعتقد أنهم يقفون منى موقفاً كهذا لأننى أعرف حقيقة مشاعر نجوى نحوى . .

فتردد لحظة ثم قال :

ـ حسناً يا أمى ، ولكن دعينى أصارحك الآن بشىء لم أصارحك به من قبل : إننى مشرف على الإفلاس بسبب ديون تراكمت على ومن ثم يجب ألا تعلم نجوى وأهلها بهذه المحنة إلى أن أتدبر أمرى .

فجزعت أمه جزعاً شديداً وارتدت ممتقعة شاحبة لدى سماعها هذا الخبر وقالت فى دهشة :

ـ ما هذه المفاجأة الجديدة ، إنك تذهلنى بمفاجآتك يا كمال ، كيف بالله حدث ذلك ؟

فأجابها فى ارتباك :

ـ الأسباب كثيرة لا أستطيع حصرها يا أمى ، ولكن لعل أهمها فوز بعض الشركات التى تزاحمنى بالصفقات بدلا منى ، ولعل منها أيضاً فتور همتى بعد الطلاق وترك الأمور تجرى دون أن أعيرها ما تستحق من الاهتمام .

فقالت أمه فى غم شديد :

ـ هذه كارثة يا كمال ، وماذا عساك تصنع ؟

ـ إذا حدث أسوأ الفروض فسأتخلى عن الشركة وأكتفى بالمصنع ، ومن المصنع أستطيع أن أكافح من جديد لأعوض خسارتى وأستعيد مركزى ، ولكنى لن أستطيع أن أفعل شيئاً ذا بال إذا لم تعد نجوى لتساعدنى وتشد أزرى ، إننى بدونها لا أساوى شيئاً ولا أستطيع أن أقدم على شىء . .

فقالت أمه فى امتعاض :

ـ ما هذا التفكير يا كمال ، إنه ليحزننى أن أراك هكذا خائر الإرادة واهى العزم ، أين قوة إرادتك ، أين مضاء عزيمتك ، إن الحسرة تأكل قلبى وأنا أراك على هذه الحالة المؤسفة ، كيف بالله تريد من

نجوى أن تقبل العودة إليك وأنت مضعضع النفس ، خامد الأنفاس ، موشك على الإفلاس ، ومن يضمن إذا عادت أن تقبل مشاركتك حياة العسر التى تعانيها والتى تتحمل مسئوليتها وحدك .

فقال وهو يتنهد فى ألم :

— أمى ، أرجوك ، أتوسل إليك ألا تزيدى شقائى . .

— لست أنا التى أزيد شقاءك ، وإنما أنت الذى تصب الشقاء على نفسك ، يجب أن تضع لهذا الضعف حداً . .

— وماذا تريدين منى أن أفعل . .

— أريد أن ترجئ موضوع نجوى إلى أن تنهض من الهوة التى ترديت فيها . هذا هو السبيل الوحيد لإصلاح ما فسد ، وبغير ذلك لن تستطيع ولن يستطيع أى إنسان آخر أن يغرى نجوى بالرجوع إليك .

— كل هذا صحيح ولكنى لا أستطيع مهما فعلت أن أتخلص من هذا المأزق بالسهولة التى تتصورينها . .

— ولماذا لا تستطيع ؟

— لأن ديونى كثيرة تفوق كل وصف وأخشى أن يكون الوقت قد فات . .

— لا تقل ذلك ، أنا معك ، أنا مستعدة لأن أبيع نصف الأرض التى ورثتها عن أبى لمساعدتك وإنقاذك من هذا المأزق .

فترقرقت الدموع فى عينيه وانكب على يدها يقبلها فى تأثر بالغ فأخذت وجهه بين يديها وهى تحدق فيه ثم قالت :

— إن ثروتى كلها ملك لك تستطيع أن تستخدمها فى أى غرض شئت ولست أرجو منك إلا شيئاً واحداً . .

— ما هو ؟

الإبريق المكسور – للفنان چان بابتيست جرويز –
متحف اللوڤر – باريس .

بولينا بونابرت – للفنان كوفى

المتحف الرسمى بفلورنسا .

– هو أن تتدبر أمرك جيداً حتى لا تتكرر هذه المأساة . إننى لم أستقص الأسباب التى أدت إلى هذه النكبة ولا أحب أن أستقصيها أو أعرف عنها شيئاً وكل ما أطلبه هو أن تقلع عن فكرة إعادة نجوى الآن فهى فكرة حمقاء ، على أننى أعدك بأن أتصل بها فى الوقت المناسب لأجس نبضها وأقف على رأيها فى الموضوع ، وأنا على يقين من أنها لن تردنى خائبة لأنها تحبنى مثلما أحبها .

الفصل العاشر

وبرت دولت بوعدها لابنها فرفع الحجز عن متجره ونشطت على أثر ذلك روح كمال ومضى من اليوم الأول لرفع الحجز يدفن نفسه فى عمله ويتفانى فيه بكليته حتى استطاع بعد بضعة شهور أن يسترد سمعته ويستعيد مكانته بين عملائه داخل البلاد وخارجها، ولم يعد ينقصه لاستكمال سعادته إلا شيء واحد هو عودة نجوى إلى بيته .

وذات يوم خرج من منزله قبيل الفجر بعد ليلة لم يغمض له فيها جفن من شدة شوقه المبرح إليها وركب سيارته وانطلق بها قاصداً زيارة أمه لمفاتحتها فى أمر نجوى ، ولم يكن النهار قد طلع بعد فرطب الجو المنعش أنفاسه الحارة وفى أثناء سيره فى شوارع القاهرة انتقل بخياله إلى نجوى وتملكته على أثر ذلك رغبة عنيفة فى المرور بدارها ليلقى على منزلها نظرة علها تطفىء لظى النيران المتأججة فى صدره ، وما كاد يستقر هذا الخاطر فى ذهنه حتى انحرف بسيارته فى الاتجاه المؤدى إلى منزلها وعندما أصبح على قيد عشرة أمتار منه توقف عن المسير وقبع فى ركن مظلم وراح يتطلع إلى شرفات المنزل وسط السكون المطبق وصدره يكاد يتمزق من شدة التأثر والانفعال . .

وفجأة انتقل بذهنه إلى برهان وإلى حادث الاتيلييه فأحس رعدة قوية تسرى فى أوصاله ولكنه تمالك وقال لنفسه : إن ما تصورته ليس إلا وهماً . . لقد أجمع الجميع على نقائها وطهارتها . . إنها لا شك بريئة مما وصفتها به . . إن المشهد الذى رأيته فى الاتيلييه رغم شذوذه لم

يكن فيه ما يبعث على الريبة وسوء الظن . . أما هذه الرسالة المجهولة فلابد أنها كتبت بيد عدو في ثياب صديق أو ربما صدرت عن حاسد أراد الوقيعة بيني وبينها لغرض في نفسه ، شد ما ظلمتها وشد ما قسوت عليها . .

وشعر عقب ذلك بحنين شديد إلى نجوى وتمنى لو استطاع أن يدخل الدار ليعانقها ويقبلها ويسألها الصفح عن قسوته وسوء ظنه ويلتمس منها العودة لتمنحه الحياة من جديد .

ووجد كمال في هذا التفكير لذة أنعشت فؤاده ولكن صورة والدها المنذرة ما لبثت أن نفذت إلى مخيلته وظلت هناك لحظة ثم توارت بعد أن تركت أمامه في الهواء خيالا اضطرب له قلبه أشد اضطراب ، ومكث في مكانه لحظات ثم استأنف السير صوب بلدته تكتنفه أشتات من الهواجس والأفكار .

وعندما وصل إلى الدار أقبلت عليه أمه متهللة وقالت له في ابتهاج :

— أهلا . . أهلا . . ترى ما الذي جاء بك في هذا الوقت ؟

فقبل يدها في حرارة ثم قال :

— أؤكد لك أن شوقي إليك وإلى عفاف هو الذي دفعني إلى المجيء ، ولقد جئت أيضاً لأطلب منك شيئاً . .

فقالت مبتسمة وهي ترنو إليه في عطف :

— لا بد أنك جئت تطلب تدخلي في موضوع نجوى ، أليس كذلك ؟

— تماماً يا أمي ، لقد وعدتني بأن تفعلي ذلك بعد أن أسدد ديوني وأستعيد مركزي ، وها قد سددت جميع ديوني وعدت إلى ما كنت عليه ولم يعد ينقصني إلا عودة نجوى ، إن الحياة بدونها لا تطاق . .

فابتسمت أمه وقالت مداعبة :

ـ عجباً لشباب الجيل ، لا يخجلون من إظهار عواطفهم أمام الناس . .

فضحك وقال :

ـ وهل أنت غريبة حتى أخفى عنك عواطفى . .

فربتت كتفه فى حنان وقالت :

ـ حسناً يا كمال ، أنا مستعدة للذهاب فى أى وقت تشاء .

فقال فى لهفة :

ـ خير البر عاجله ، إذا لم يكن لديك مانع فإنى أقترح أن نسافر غداً . .

ـ لا مانع ، ومن الخير أن نأخذ عفاف معنا لأن وجودها يضمن تذليل العقبات وتصفية الجو وتهدئة النفوس وخاصة نفس والد نجوى .

فوثبت إلى مخيلته فى الحال وجه والد نجوى الصارم المكفهر فارتجف قلبه وقال :

ـ هذا ما كنت أفكر فيه فعلا ، وأرجو يا أمى أن تتذرعى بالصبر فى حديثك معه . .

ـ أعدك بأن أصبح باردة كالثلج من أجلك ومن أجل نجوى وعفاف . .

فأخذ يدها وقبلها وقال فى مرح :

ـ لست أدرى كيف أشكرك ، أنت أعظم الأمهات .

وفى صباح اليوم التالى انطلقت السيارة بركابها الثلاثة إلى القاهرة وفى دخيلة نفس كل من كمال وأمه أسئلة كثيرة محيرة ، وكانت أم كمال لا تقل حيرة وقلقاً عن ابنها وظلت طول الطريق تفكر فى والد نجوى ، ترى كيف يستقبلها ، أى نقاش ينتظرها معه .

ووصلت السيارة إلى القاهرة ثم مضت فى طريقها حتى بلغت مفترق

الطرق بين الشارع الرئيسى والشارع الذى يتجه إلى منزل نجوى وهناك نزلت دولت وعفاف واتجهتا نحو المنزل بينما توجه كمال إلى أحد المقاهى القريبة وجلس فيه انتظاراً لعودتهما .

وكان من حسن حظ دولت أن والد نجوى لم يكن هناك فاستقبلتها أم نجوى مرحبة وأذهبت حرارة ستقبالها ووداعتها ما كان فى نفس دولت من رهبة . وما إن علمت نجوى بوصول ابنتها حتى هرولت إليها وتلقتها فى أحضانها والدموع فى عينيها ثم أقبلت على دولت فعانقتها وقبلتها ولما انتهت من تحيتها أخذت ابنتها وتقدمت إلى قاعة الاستقبال وهى لا تفتأ تقبلها وتضمها إلى صدرها فى وله شديد .

وجلسوا فى قاعة الاستقبال يتبادلون الأحاديث وبعد لحظات استأذنت نجوى وخرجت إلى غرفتها وهى تحمل ابنتها بين ذراعيها وظلت المرأتان وحدهما تتطارحان الأحاديث فى موضوعات شتى وشجع دولت ما رأته من سماحة أم نجوى على الدخول فى الموضوع الذى جاءت من أجله ولكنها ما كادت تهم بالكلام حتى تناهى إليها صوت والد نجوى من خارج القاعة وسمعته يقول لنجوى فى غضب :

— ماذا جاء بهذه المرأة إلى هنا ؟ وكيف سمحتم لها بالدخول ؟

فأجابته نجوى متوسلة :

— أبى ، أرجوك ، أتوسل إليك أن تكون لطيفاً معها . .

فصاح بها فى عنف يشبه التهديد :

— لاشأن لك بهذا ، اذهبى إلى غرفتك . .

ودخل الرجل وعيناه تلمعان من الغضب فنهضت دولت ومدت إليه يدها فصافحها فى برود بأطراف أصابعه وذهب إلى أقرب كرسى فجلس عليه فى تأفف واستياء وهو يرمقها بنظرات شذراء منكرة :

فنظرت إليه دولت وقالت فى هدوء :

ـ أهذا لقاء الضيف يا أستاذ زكى ، أهذا جزاء حضورى لمصالحة نجوى ؟

فتجهم وجهه وقال :

ـ مصالحة نجوى ! ما شاء الله ، ومن طلب منك أن تفعل ذلك ، بل من قال لك إننا نريد الصلح معكم ، ألم يخبرك ابنك بأنى حرمت عليه وعليكم جميعاً أن تطؤوا منزلى مرة أخرى .

ولم تشأ دولت أن ترد عليه حتى لا تضاعف غضبه ولم تزد على أن ابتسمت ونظرت نحوه ثابتة وفى نظرتها ما يقرب من التوسل والاستعطاف .

واستطرد الرجل يقول والغضب يرعد شفتيه :

ـ حقاً ، لم أر فى حياتى أناساً مثلكم ، أوبعد كل ما حدث لا تخجلون من المجيء إلى هنا ، والله لولا أنك سيدة لما ترددت فى طردك .

فأجابته دولت وهى تجاهد فى كبت مشاعرها :

ـ الله يسامحك ، أتهينني فى بيتك ؟

فقال فى جرأة وقحة :

ـ لا داعى لكثرة الكلام فليس بيننا ما يدعو للعتاب ولا للمناقشة .

فعبست دولت لأول مرة وقالت فى غضب وهى تهم بالنهوض :

ـ لو عرفت أن كراهيتك لنا تبلغ هذا الحد ما كلفت نفسى مشقة الحضور إلى هنا .

وهنا نهضت والدة نجوى تبغى تلطيف الجو فرماها زوجها بنظرة صارمة وصاح فيها :

ـ دعيها تذهب ، وإذا سمحت لها بالدخول مرة أخرى فلن تلومى إلا نفسك ، أسامعة أنت ؟ !

فأحست دولت بخزى شديد وسارت بخطوات آلية نحو الباب وكأن

غمامة قد غشت بصرها وما إن تخطت عتبة الباب حتى شعرت بيد تلاطف ظهرها فرفعت عينيها فرأت نجوى تحمل ابنتها وترنو إليها فى حنو صامت والدموع فى عينيها فنظرت إليها دولت وقالت بصوت متهدج :

— لست أدرى ماذا أقول يا نجوى ، ولكن دعينى أصارحك على عجل قبل أن يفاجئنا والدك إن كمال يحبك وهو فى حالة سيئة للغاية بسبب فراقك وكنت أود من صميم قلبى أن تعودى إليه لتنقذيه من همومه وآلامه ولكن والدك للأسف لم يوافق . .

فأجابتها نجوى فى صوت راعش يفيض بالانفعال والتأثر :

— لقد سمعت كل شىء ، إننى أشكرك وقبل أن تذهبى أريد أن أقول لك شيئاً ، إنك تغادرينى دون أن تعرفى شيئاً عن حقيقة الموقف الذى أدى إلى الطلاق ، يهمنى أن تعرفى أننى وإن كنت قد أخطأت بذهابى إلى الرسام فإننى أقسم لك أننى لم أتورط فى شىء يشينى كما توهم كمال ، وأنى وإن كنت قد قطعت الأمل فى العودة إليه فذلك لا يمنعنى من أن أؤكد لك أننى غير حانقة عليه ولن أنساه أبداً لأننى . . لأننى . .

ولم تستطع أن تكمل عبارتها من شدة التأثر فضمتها دولت إلى صدرها فى حنو بالغ ثم قبلتها فى جبينها ودموعها تتساقط على شعرها وقالت :

— وداعاً يا نجوى ، الله يسعدك يا بنتى . .

ثم أخذت عفاف من يدها وانصرفت تخنقها العبرات :

وما كادت تغادر المنزل حتى أسرع إليها كمال بسيارته وقال فى لهفة وهو يفتح لها الباب :

— خير إن شاء الله . .

فتنهدت قائلة :

— خير يا بنى .

وفى الطريق قصت عليه فى مرارة وحزن كل ما سمعته من الأستاذ زكى

وكل ما سمعته من نجوى لا سيما عباراتها التى انطوت على أصدق مشاعر الحب والإعزاز له ولابنتهما عفاف .

وظل كمال يستمع إليها فى صمت وقلبه يتمزق من شدة الألم والأسى ؛ فلما فرغت من كلامها التفت إليها وقال :

ــ إذن فلم يعد هناك أمل . .

ــ لست أدرى ماذا أقول لك يا كمال ، إن قلب الرجل ينطوى على كراهية شديدة تفوق كل وصف . .

وعندما انفرد كمال بنفسه فى غرفته رأى نفسه يبكى فى صمت وعبراته تتساقط الواحدة فى إثر الأخرى كطفل صغير . وقضت أمه طول ليلتها أيضاً تتقلب فى فراشها وهى تقلب الأمر على كل نواحيه حتى إذا ما بزغت شمس اليوم التالى ذهبت إلى غرفة ابنها وبعد أن حيته جلست إلى جواره وقالت له :

ــ نصيحتى إليك أن تنسى هذا الموضوع لأن التفكير فيه لا جدوى منه الآن ؟

ــ كيف أنساه يا أمى ونجوى كل شىء فى حياتى . . لست أدرى كيف لم أدرك هذه الحقيقة طوال عشرتى معها . .

فأخذت يده بين يديها وقالت :

ــ سيحل الوقت الذى تنسى فيه كل ما مضى ، هذه سنة الحياة يا كمال . .

ــ إن هذا الوقت لن يحل أبداً . .

ــ لو كنت مكانك لما ركنت إلى الماضى ولتطلعت إلى المستقبل . .

ــ أى مستقبل ! إننى أشعر بأننى سأعيش حياة كلها ظلام فى ظلام . .

وبعد حديث قصير خرجت دولت لتشرف على إعداد الفطور ،

وازداد على أثر خروجها انقباض كمال وثارت فى نفسه ثورة عمياء على الأستاذ زكى وعلى نفسه أيضاً وعاد إلى فراشه وارتمى عليه يملكه الأسى واللوعة .

وعاشت دولت مع ابنها فى القاهرة فى عزلة كئيبة يملؤها الحزن والأسى والقنوط . وشاء القدر أن تبلغ الأمور أزمتها الكبرى فما هى إلا أشهر قلائل حتى جاءهم النبأ المثير ، نبأ عقد قران نجوى على برهان ، وكان لهذا النبأ وقع الصاعقة فى نفس كمال وبلغ من شدة تأثره بالصدمة أنه ظل واقفاً فى مكتبه بالشركة جامداً واجماً عاجزاً كل العجز عن أن يجد من هياج أعصابه ما يخفف وطأة الألم الذى استولى على قلبه ، فلما استيأس من ذلك غادر مكتبه وذهب إلى أمه وأخبرها بالخبر فجزعت لذلك جزعاً شديداً وقالت :

— يا إلهى ، هذه نكبة ، من يصدق أن نجوى ترضى بالزواج من غيرك . .

— ليس الغريب أن تتزوج ولكن الغريب هو أن تتزوج من الرجل الذى طلقها بسببه ، بم تفسرين ذلك ؟ . .

— لست أدرى ولكنى أعتقد أن نجوى ليس لها دخل فى الموضوع ، لابد أن والدها هو الذى أرغمها على الزواج ولابد أيضاً أن زوجها الجديد هو الذى سعى إلى ذلك لعلمه بأنها طلقت بسببه وهو موقف لا يمكن أن يلومه عليه أحد . .

فقال فى يأس ومرارة :

— هذا غريب ، حقاً إن المرأة مستقر المتناقضات .

— ليس فى الأمر أى تناقض يا كمال ، إن نجوى معذورة لأنها لا تستطيع بعد أن فرطت فيها هذا التفريط أن تخرج على إرادة أبيها . .

— لها الله ، لو تعلم أى شقاء أنزلته بى بهذا الزواج إذن لكانت

أشقى الناس ، ليتها ماتت . . ليتها ماتت . .

وكانت نجوى فى تلك الساعة التى يوسعها ذماً وازدراء سارحة الفكر فيه ولكن كان بينها وبينه حجاب كثيف لايتمثل فقط فى وجود أبيها وزوجها الجديد ولكنه يتمثل أيضاً فى تصرفات كمال معها ، فإن ذلك الشاب الطيب المخلص المكافح رغم ثقافته وإخلاصه لم يعرف كيف يسوس امرأة محبة طاهرة مثل نجوى التى لم تعرف طبائع الناس ولا وسوسة الشيطان إلا معرفة سطحية مبهمة .

الفصل الحادى عشر

وتم زفاف نجوى إلى برهان فى حفل بهيج حضره جمع من المدعوين والمدعوات من أقرباء وأصدقاء العروسين ، وكانت عديلة من بين المدعوات ، وكانت من قبل قد تلقت نبأ عقد القران فى غم شديد ولكنها عندما دعيت لحفل الزفاف استطاعت بقدرتها المعهودة على التصنع والتلون أن تخفى ما بها وأن تظهر لنجوى وجهاً مشرقاً يفيض بالحب والود والإعزاز . وبعد انقضاء الحفل أخذ برهان نجوى من ذراعها والتفت نحو المدعوين وقال فى مرح :

— سوف أصطحب ملكتى الجميلة فى جولة عاطفية . . عن إذنكم .

ولم يلتفت وراءه ولكنه سمع ضحكة غريبة تصدر من ناحية عديلة ، فلم يعبأ بها وجذب نجوى من ذراعها إلى الخارج حيث كانت بانتظارهما سيارة أنيقة اشتراها برهان خصيصاً لهذه المناسبة .

ومرت أشهر حرص الاثنان فيها على أن يكونا خير مثال للزوجين السعيدين ، فكانت نجوى تبذل جهدها للعناية بشئون المنزل وتوفير أسباب الراحة والسعادة لبرهان ، وكان برهان يعود كل يوم مسرعاً عقب انتهاء عمله ليجد زوجته الجميلة تنتظره بابتسامتها الحلوة الفاتنة فيحيطها بذراعيه ويغمرها بسيل جارف من عواطفه المشبوبة وقبلاته الحارة .

وكانت نجوى قبل زواجها لا تفتأ تفكر فى مصر الجديدة حيث يقع منزل زوجها الأول ، وكان هذا التفكير يلح عليها ويرهقها إرهاقاً شديداً وخاصة بعد أن صارحتها أم كمال عند حضورها بمدى ما يضمره لها كمال من حب ومدى ما يعانيه من عذاب الفراق ؛ ولكنها الآن زوجة ، ووزجة

لفنان له مكانته فى المجتمع ، فلتذهب عنها كل هذه الأفكار التى لا طائل من ورائها .

وكانت عديلة تتردد على الزوجين تتناول معهما العشاء أحياناً وتخرج معهما للتنزه أو السهر أو زيارة المتاحف والمعارض أحياناً أخرى ، وكانت فى كل مرة تأتى فيها تولى نجوى من دلائل الحب والإخلاص ما يبعث العجب فى نفس نجوى ، وكثيراً ما كانت عديلة تندفع لتقبلها فى غير مناسبة وتدللها وتدعوها بأرق أسماء التدليل وأعذبها ، وكانت نجوى ترى ذلك فتطيب نفسها وينتعش فؤادها ويفيض قلبها جذلا وسروراً . أما برهان فكان إذا رأى ذلك ضاق به أشد الضيق وامتلأت نفسه بمشاعر لا تهدأ ، ولكنه لم يجرؤ على أن يظهر ما بنفسه مخافة أن يؤدى ذلك إلى إثارة الريبة فى نفس نجوى وإثارة نيران الغضب والثورة فى نفس عديلة وكلا الأمرين خطر محقق على حبه وعلى سعادته الزوجية .

وشعر برهان بمضى الزمن أنه يواجه موقفاً جديداً عصيباً لم يسبق له مواجهته : موقف الرجل بين الخليلة والخليلة ، الخليلة التى أسعدته وعلمته معنى الحب الطاهر والحياة النظيفة ، والخليلة التى عاش معها فى مغامرات تتنافى مع الشرف والخلق والضمير والتى تأبى أن تتركه وتخلى مكانها لصاحبة الحق الأول فيه .

وفكر برهان ذات مرة فى أن يواجه عديلة بموقف حازم حاسم لا هوادة فيه ولا لين ويعلنها بعزمه على قطع كل صلة تربطه بها ، وانتهز لذلك فرصة انفراده بها ذات يوم فى الأتيلييه وفاتحها فى الموضوع ، فتجهم وجهها . وبعد فترة قصيرة من الصمت قالت له :

ـ أنا لن أوافق على ذلك ولو شنقتنى .

فأجابها فى هدوء .

ـ سأحاول أن أقنعك دون أن أشنقك ، اسمعينى جيداً .

— لا تحاول إقناعى ، لست على استعداد لأن أقتنع بهذا الكلام .

— افهمينى يا عديلة ، إننى لا أستطيع أن أدنس حبى لنجوى بأية نزوة بعد الآن .

فقالت تقهقه فى سخرية :

— ها . . ها . . أراك تتحدث كما لو كنت رجلا مثالياً ، اسمع يا برهان ، سأخبرك بشىء لعلك نسيته ، إن معى رسائل وصوراً تحمل توقيعك ، ومن بينها رسائل وصور فاضحة لا تشرفك وتتنافى تماماً مع الموقف الذى تقفه منى الآن ، فإذا عزمت على هجرى والغدر بى ، فإننى لن أتردد لحظة فى تسليمها لنجوى لتطلع عليها بنفسها .

فامتقع وجهه امتقاعاً شديداً وقال وهو يجاهد فى امتلاك أعصابه :

— إذن أنت تعترفين أن حبك لى حب غير أصيل ، لأنه لو كان أصيلا لضحيت من أجل سعادتى .

— بالعكس ، إن حبى حب أصيل ، ولا يتنافى مع الحقيقة أن يكون الحب الأصيل مدمراً .

— أنت مجنونة . . مجنونة ولا شك يا عديلة ، أتظنين أن قلبى يتسع لك ولها ؟

— وما الذى يمنع ذلك ؟

— يمنعه زواجى من نجوى ، إنها زوجة لها علىّ كل الحقوق .

— إذن طلقها . . طلقها ، ودعها تذهب لزوجها الذى أشقاه زواجك منها .

— هذا مستحيل . . مستحيل ...

فجثت عند قدميه وقالت متوسلة والدموع تنحدر على خديها :

— أضرع إليك .

فنحاها بيده وقال :

– اتركيني . . أرجوك .
– أتوسل إليك يا برهان ، لا تتركني .
– لا تتعبي نفسك .
فعادت إلى عينيها معاني الغضب وانتصبت واقفة وقالت له :

– إذن يؤسفني أن أفعل ما انتويت فعله ، إليك كلمتي الأخيرة ، إذا لم تغير موقفك فسأسلم نجوى كل ما معي من رسائل وصور وأنت أدرى بالنتيجة . لقد كنت أرجو ألا ألجأ إلى هذا التصرف معك ولكنك ألزمتني به إلزاماً .

فصعدت من صدره أنة عميقة واهتز من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وخيل إليه أن الفضيحة التي تهدده بها عديلة قد نزلت به فعلا ، وعندما وضعت عديلة يدها على كتفه خال أنها يد من صخر تبهظ كاهله وتوشك أن تسحقه سحقاً ، وسمعها تقول وهي تدني وجهها من وجهه :

– والآن يا برهان علام عولت ، وماذا أزمعت .
فأجابها على صورة آلية كأن الكلام يخرج من شخص غير شخصه :

– حسناً يا عديلة ليكن لك ما تريدين ولكني أطالبك أن تقطعي على نفسك عهداً بأن يظل الماضي بكل تفاصيله خافياً على نجوى .
فقالت وهي تمطره بوابل من قبلاتها :
– أعدك بذلك من صميم قلبي ، يا حبيبي .

وشحذ هذا الانتصار ذهن عديلة فذهبت إلى نجوى في اليوم التالي وأخبرتها بما آل إليه حال كمال بسبب الفراق ، وقالت إن كل من رآه راعه ما يبدو عليه من آثار السقام ، وإنه يتردد على الحانات يلهو فيها ويشرب حتى ساءت صحته واعتل مزاجه واضطربت أعماله ولم يعد يدري أين تقوده خطاه . .

وشعرت نجوى بحزن كبير حينما سمعت ما قصته عليها عديلة وزاد تأثرها حينما سمعت منها أنه ما زال يحبها ويتعذب أشد العذاب لفراقها ، وكادت الدموع تنبثق من عينيها إشفاقاً عليه ولكن اعتقادها بأنه سوف ينساها فى يوم من الأيام جعلها تطمئن بعض الشيء وتقصر تفكيرها على زوجها ومستقبلها .

الفصل الثانى عشر

ولو أن نجوى عرفت حقيقة المصير الذى انتهى إليه أمر كمال لما تخلصت من تلك الخواطر والأفكار بسهولة ، فقد كان كمال شقياً بائساً بكل ما فى هاتين الكلمتين من معان ، ذلك أن أمه وابنته ما كادتا ترحلان إلى بلدتهما حتى عاد إلى شرب الخمر من جديد . كان وحيداً مع نفسه وشقائه وبؤسه وآلامه ، وتحت كلكل همومه خرج ذات مساء يهيم فى الشوارع وأدى به المطاف إلى إحدى صالات اللهو فأحس بالعطش وسارع إلى الباب فدخله وما إن تخطى عتبة الباب حتى رأى مجموعة من السكارى يعربدون ويصخبون ومن حولهم مجموعة من النساء يرين على وجوههن السهوم وترتسم عليها آثار التجارب ، وقد بلغت النشوة منهم جميعاً أن فقدوا صوابهم وطفرت أرواحهم من أشباحهم وعمت حرارتها جو المكان فبدا فى صورة منفرة مزعجة فاضطربت نفسه وكان الانصراف السريع أول ما هم به ولكن عطشه كان أقوى من رغبته كما أنه خشى أن يقع من جديد فريسة لهمومه وآلامه وهكذا اندفع إلى إحدى الموائد ونادى الجرسون وطلب منه أن يعطيه شيئاً يهدئ من ظمئه . وجاءه الجرسون بزجاجة ويسكى فجرع محتوياتها وشعر على أثر ذلك بثقل رأسه ولكنه شعر فى الوقت نفسه بأن هذا الثقل محبب إلى نفسه ، ثم طلب زجاجة أخرى حتى يستديم أثر الزجاجة الأولى ويستزيدها قبل أن تخبو وفى هذه المرة جاءته لتلبى طلبه فتاة جميلة الصورة ذات فم قان وعينين واسعتين وقد متسق وتعقد شعرها بشريط أحمر زادها جاذبية وسحراً . وكان كمال فى ذلك الوقت مضطجعاً مغمض

العينين فى نشوة فلما أحس بها وفتح عينيه أدهشه منظرها وقال لها وهو لا يحول عينيه عنها :

ـ أريد زجاجة أخرى .

فذهبت الفتاة ثم عادت ووضعت الزجاجة أمامه وفيما كانت تصب الخمر له رمقته بنظرة نفذت إلى أعماقه وفجأة رأى نفسه يدعوها للجلوس لتنادمه فى الشراب فابتسمت قليلا ثم بدا عليها شىء من القلق كما لوكانت تخشى أن يتنبه الحاضرون إليها وإلى هذا الشاب الوديع فيعبثوا بهما ساخرين ، وأخيراً أشارت إلى منضدة فى ركن منزو وقالت له :

ـ تعال نجلس هناك .

ولما مشت أمامه ظهر قوامها الرائع وتأملها كمال لحظة فسرت قشعريرة فى بدنه ، وعندما جلسا قالت له مبتسمة إنها لا تشرب إلا الشمبانيا فقال لها فى حماس :

ـ كما تريدين ، فلتحضرى الشمبانيا .

ثم استطرد يقول وهو يترنح :

ـ يمكنك أن تشربى إلى جوارى ما تشتهين ، فأنا تاجر غنى . . غنى جداً .

فضحكت الفتاة ضحكة قصيرة وذهبت لتحضر الشمبانيا وعادت بعد قليل وفى يدها زجاجة ذات سدادة ذهبية ثم جلست ووضعت أمامها كأساً ونزعت السدادة فى مهارة ففاض الزبد على جانبى الزجاجة وبعد لحظة كانا يحتسيان الشراب وهما يتبادلان الابتسام ، وكان كمال وهو ينظر إليها يفكر موازناً بين جمالها الأشقر المرح وبين ذكريات كثيراً ما هزت مشاعره وأرقت منامه ، وحدجته الفتاة بنظراتها النفاذة وسألته فجأة عن اسمه فأجابها :

ـ لا داعى الآن لذكر اسمى ، يكفى أن تعلمى أننى رجل أعمال

ولى تجارة كبيرة ، كبيرة جداً .
— وهل ستحضر كثيراً إلى هنا ؟
— بكل تأكيد سأحضر إلى هنا لأننى لن أطيق بعد الآن البعد عن هذا المكان .
فابتسمت له وقالت وهى تضع ساقاً على ساق :
— ذلك يسرنى كل السرور .
— ما اسمك ؟
— نعمات .
— أتسمحين يا نعمات بأن نخرج للتنزه قليلا .
ففكرت نعمات لحظة قبل أن تقول :
— لا أستطيع أن أخرج الآن .
— لماذا ؟
— لأن بعض الناس مكلفون بالسهر علىّ هنا ، وما تطلبه قد يعرضنى للمتاعب ، ومع ذلك فبوسعى أن أحدد لك وقتاً آخر إذا أعطيتنى عنوانك .
وكان فى أثناء ذلك يغالب رغبة قوية فى أن يضمها بين ذراعيه وأن يقبلها ولكنه جاهد حتى قهر النزوة التى تملكته ثم أخذ يتكلم فى بطء وهو يلهث متأثراً بما يشعر به من هياج عاطفى وقال لها :
— أنا كمال حسنى صاحب الشركة المعروفة باسمى فى الموسكى ، وأعيش الآن وحدى بعد أن طلقت زوجتى .
— آه ، أدركت الآن ، لقد جئت لتدفن همومك وتنسى أحزانك ، مسكين ، هلا أخبرتنى بمأساتك ؟
— إذا وافقت على الخروج معى أخبرتك بكل شىء .
فلم تبدر منها أمارة تدل على القبول أو الرفض فقال لها :
— إن هذا يعنى أنك توافقين ، أريد أن تأتى معى لأريك منزلى وهناك

سأقص عليك قصتى .

وأخرج حافظة نقوده ووضع ثمن ما شرباه على المائدة ثم تناول ورقة من ذات خمسة الجنيهات وقال لها :

– هذه لك ، لأنك ملكت قلبى وأنقذتنى من شقائى ، هيا بنا ...

فهتفت به قائلة :

– أخبرنى أولا ، هل سنكون هناك فى أمان ؟

– كونى مطمئنة ، سأذهب الآن لأصرف الخدم . . . أين التليفون ؟

فأرشدته إلى مكان التليفون ثم قالت وهى تسرع إلى غرفة صغيرة :

– اذهب وانتظرنى بالخارج حتى أحضر إليك .

وأقلتهما السيارة إلى مصر الجديدة ، ولما وصلا إلى المنزل تأبط كمال ذراعها وصعد بها تواً إلى الطابق العلوى وهى لا تفتأ تجول بعينيها فى مظاهر الترف والنعيم فى عجب وذهول ، ثم جلست على إحدى الأرائك الوثيرة وقد أطبقت عينيها فى غبطة غاشية وأخذت تهمهم قائلة :

– أوه ، إنك غنى جداً ، لم أكن أظن أنك غنى إلى هذه الدرجة ، لست أدرى لماذا هجرتك زوجتك وأنت بهذا الثراء ؟

فسرت رعدة فى أوصاله لدى ذكر زوجته ولكنه تمالك زمام نفسه وقال :

– وهل تظنين أن الغنى وحده هو الذى يسعد الزوجات ؟

– وماذا يسعد الزوجات فى رأيك ؟

– انسجام الأرواح وتوافق الأمزجة .

فقالت ساخرة :

– هذه آراء خيالية لا يمكن أن تغنى عن المال فتيلا .

– أتظنين ذلك ؟

– بكل تأكيد ، إننى أقول ذلك عن خبرة ، فلولا بؤس عائلتى

لما انحرفت وترديت فيما أنا فيه الآن ، ولكن ما لنا ولهذا ، لماذا نشغل أنفسنا بالكلام عن الماضى ومآسيه ، تعال وأرنى حجرة هذه الزوجة الجاحدة الناكرة للجميل .

ومدت إليه يدها فأخذها وقادها عبر ردهة صغيرة حتى بلغا حجرة نومه وما إن لمح فراشه حتى خفق قلبه وتخاذلت قواه ولاحت له فى الحال صورة نجوى تتمثل له فى عطرها الهادئ وهو ينفذ إلى أعماق صدره وأصداء صوتها العذب وهو يتردد فى سمعه ووجهها الساحر النقى يشع بالنور فى خياله ، وعند ذلك فقط بدأ يشعر بهول ما هو مقدم عليه فاضطرم قلبه بشعور مختلط من الاشمئزاز والغم والعجز والضآلة ، وأحس بأن كل عرق فى بدنه يرف وأن هموم الحياة كلها تتجمع فى صدره .

وعلى أثر ذلك ترك نعمات تستلقى على الفراش ومضى إلى النافذة ففتحها وأطل منها على الحديقة ووقف هنيهة يستقبل النسيم العليل وهو يتأمل فى ذهنه شريطاً طويلا من ذكريات ومشاهد كان يسترع أمام بصره .

وسمعها تناديه فاستدار إليها فوجدها ممددة على الفراش ومن فوقها غطاء لم يظهر منه إلا وجهها وعنقها فمشى ناحيتها وجلس جنبها على السرير ووضع وجهه على صدرها فأخذت رأسه فوق ذراعها ، وبقى ساكناً صامتاً لحظة وهو يسمع أنفاسها المتلاحقة ويتشمم العطر المنبعث من شعره وثوبها ، ونفد صبرها أخيراً فقالت محتدة :

ـ ماذا دهاك ، هيا أغلق النافذة ولا تضيع الوقت فى هذا العبث الصبيانى .

فنهض وهو يشعر بالضيق يغزو صدره وتوجه إلى النافذة وقضى وقتاً تتنازعه شتى الأفكار ثم أغلق النافذة وعاد إليها وظل وقتاً صامتاً ثم قال لها :

ـ اعذرينى يا نعمات ، إن ضميرى لا يطاوعنى .

فقالت فى دهشة :

— ضميرك ! وأين كان ضميرك عندما اصطحبتنى إلى هنا ؟

— معذرة يا نعمات ، أرجو أن تقدرى موقفى .

وساد بينهما الصمت لحظة ثم قال لها :

— أمستاءة أنت ؟

فقالت فى لهجة يشوبها السخرية وهى ترمى الغطاء بعيداً عنها :

— لست مستاءة ، الأمر إليك أنت .

— أشكرك ، وأرجو أن تعلمى أن خيال زوجتى هو الذى يقف بينى وبينك .

— ما دمت تحبها بهذا الشكل فلم طلقتها إذن ؟

فتنهد قائلا :

— هذه قصة طويلة سأقصها عليك فى وقت آخر .

وعندما أرادت الانصراف أخرج من أحد الأدراج علبة صغيرة فيها خاتم جميل ثم قدمه إليها وهو يقول وعلى فمه ابتسامة حائرة :

— هذا لك يا نعمات .

فتأملت الخاتم وقلبها يهفو إليه وغمغمت :

— لا . . لا . . هذا كثير .

فمد يده إليها بالخاتم وهو يقول :

— ليس هذا بكثير عليك ، خذيه واحتفظى به تذكاراً للجميل الذى أسديته إلىّ ، لقد كان جميلا منك أن تحاولى مواساتى .

فأخذت الخاتم وهى تتمتم بعبارات الشكر ثم ودعته وانصرفت .

الفصل الثالث عشر

وصحا كمال فى اليوم التالى وهو يحس آلاماً شديدة فى معدته بسبب إفراطه فى الشرب حتى خيل إليه أن معدته تحترق ثم بدأ يفكر فى بطء وعاودته شيئاً فشيئاً كل أحداث الليلة الماضية فاجتاحه شعور مرير بالخجل والندم وأغمض عينيه حتى لا يرى شيئاً ولا يفكر فى شىء ، وبقى فترة وهو يتأوه وأسنانه تصطك من فرط الألم ، وبعد أن هدأت نفسه قليلا ترك فراشه بعد أن عاهد نفسه على أن ينسى كل شىء ، ولكنه ما كاد يقضى فى شركته بضع ساعات حتى وجد أن النسيان فوق طاقته وأن ظمأه إلى الخمر أمر لا قبل له بمقاومته . وسرعان ما غادر مقر الشركة وقصد إلى إحدى الحانات وابتاع زجاجة كبيرة من الويسكى وأسرع بها إلى منزله ، وبعد أن جرع كل محتوياتها فى جوفه شعر أنه أصبح أحسن صحة وأهدأ بالا ولم يلبث أن تمدد فى فراشه واستغرق فى النوم .

واستيقظ فى الساعة التاسعة مساء فوجد السكون مخيما على المنزل فنهض وارتدى ثيابه ثم ركب سيارته وانطلق بها إلى الصالة لزيارة نعمات ولاحتساء بعض كؤوس الخمر معها .

ولما دخل الكاباريه ارتمى على أول مقعد صادفه ونادى الجرسون وما إن حضر الجرسون ورآه حتى التفت إلى أحد أركان الصالة ونادى نعمات ، وحضرت نعمات على عجل وما إن وقع بصرها على كمال حتى صاحت فى جذل :

ـ أهذا أنت يا كمال بيه ؟

وصافحته مرحبة كصديق قديم وقالت فى رقة :
— لقد ظننت أنك لن تعود مرة أخرى ، أتريد زجاجة ويسكى ؟
— نعم ، وزجاجة شمبانيا لك .
فقالت فى قلق واقتضاب :
— ليس الآن ، لا أستطيع أن أشرب معك الليلة .
— ولماذا ؟

فتكلمت فى عجلة دون أن تنظر إليه لأن عينها كانت فى تلك اللحظة تراقب شاباً قوى الجسم رياضى المظهر ظهر عند الباب ، وبعد لحظة دخل الشاب وهو يصفر هازاً كتفه ونظر إلى كمال فأحس كمال أنه يسخر منه ويريد التحرش به فاعتدل فى مجلسه واتخذ هيئة الواثق من نفسه وهو يرمق غريمه فى انتباه شديد ، فنظرت نعمات إلى كمال تأمره أن يغض من بصره فلم يمتثل لنظرتها وظل فى مكانه ينظر إلى الشاب وعليه دلائل العزم ، وعجب الشاب من جرأته وجرع كأساً كانت بيده دفعة واحدة وفجأة قذف بالكأس فى وجه كمال ، فنهض كمال ثائراً مهتاجاً ولكنه ما كاد يتحرك حتى تلقى ضربة قوية على فكه سقط على إثرها يتخبط على الأرض ، ولم يمهله الشاب وإنما انقض عليه كالوحش الهائج وراح يكيل له اللكمات فى قسوة بالغة ، وتجمع حول الشابين جماعة من السكارى وهم يضجون ويصخبون وما هى إلا لحظات حتى انقلبت الصالة مسرحاً للهرج والفوضى ونشبت على إثر ذلك معارك أخرى متفرقة ، وخلال هذا الهرج المروّع أصيب كمال بضربة زجاجة فى جبهته سقط على إثرها فاقد الوعى وبعد ساعة نقل إلى المستشفى بين الحياة والموت .

ولما علمت عديلة بما انتهى إليه أمر كمال وجدت الفرصة سانحة لتعكير صفو الحياة بين نجوى وبرهان فأسرعت إلى دار نجوى وأخبرتها بالحادث ولما رأت ما بدا عليها من الحزن والجزع على ما أصابه دنت منها

وقالت لها فى ابتسامة غامضة :

ــ ما رأيك فى الذهاب إليه للاطمئنان على صحته ؟

فقالت فى شىء من الامتعاض :

ــ وهل هذا يليق يا عديلة ؟

ــ ولم لا ، لو كنت مكانك لما ترددت فى زيارته .

ــ وهل يرضى برهان عن ذلك ؟ إنه لن يوافق بكل تأكيد .

ــ بوسعك أن تذهبى دون أن يعلم .

ــ لا . . لا يا عديلة ، إننى لا أحب أن أتورط فى أمر كهذا .

ــ لا تورط فى الأمر ، ثقى أن زيارتك ستظل طى الكتمان .

ــ ولماذا أعرض نفسى للقيل والقال ؟!

ــ ألا تثقين بى ؟

ــ إننى أثق بك كل الثقة ولكن ما دخل ثقتى فيك بهذا الموضوع ؟

ــ باستطاعتى أن أدبر لك هذه الزيارة دون أن يفطن أحد إلى الأمر .

ــ لا يا عديلة ، إننى لا أحب أن أقدم على عمل لا يرتاح إليه ضميرى .

وظلت عديلة تزين لها الذهاب إلى المستشفى ولكن دون جدوى ، وأخيراً تركتها وانصرفت وهى تعض شفتيها من شدة الغيظ الذى كان يتأجج فى صدرها .

الفصل الرابع عشر

ومر أسبوع عانى فيه كمال من الآلام والأهوال ما لا يطاق ، وفى الليلة الثامنة بينما كان يتململ فى فراشه تحت تأثير آلامه النفسية والجسدية كانت نجوى تعيش أسعد لحظات عمرها ، كانت تقف عند مدخل الاتيلييه إلى جوار زوجها فى أبهى زينة لاستقبال الضيوف الذين دعاهم برهان لمشاركته الاحتفال بإزاحة الستار عن اللوحة الجديدة التى رسمها لها والتى علق عليها أكبر الآمال .

و بعد قليل دخل الزوجان إلى القاعة لتحية الضيوف وفى أثناء سيرهما إلى الداخل مال برهان على زوجته وقال لها وهو يتوسمها فى تودد ظاهر :

ـ شد ما أنت جذابة الليلة يا نجوى .

فابتسمت وقالت وعيناها تزدادان إشراقاً :

ـ أترانى كذلك حقاً ؟

ـ بكل تأكيد ، أنت الليلة فوق ما أصف .

وسارا إلى قاعة العرض وهو مطبق بيده على يدها ، وما كادا يظهران حتى تحولت إليهما أنظار الجميع وفى مقدمتهم عديلة ، فوقف كل منهما يرحب بضيوفه ويقدم لهم الشراب وينتقل هنا وهناك محيياً . وكانت القاعة مزدانة بعدد كبير من اللوحات الجميلة والصور الرائعة بينما كان يتوسطها صورة كبيرة الحجم غطيت أجزاؤها بأغطية سميكة من كل جانب .

وطوّف برهان بالضيوف فى أنحاء القاعة وأخذ يروى لهم فى إفاضة نبذة عن كل صورة من الصور التى أبدعتها ريشته ، وكانت عديلة أثناء

ذلك تلازمه كظله ولا تكاد ترفع عينيها عن وجهه .

وبينما كان برهان يتنقل مع ضيوفه هنا وهناك كانت نجوى تقف فى خالة حصار تام ، فقد أحاط بها جمع من الرجال والشبان وجعلوا يتحدثون معها وكل منهم يحاول الاستئثار بالكلام معها دون الآخرين .

وبعد قليل تقدم برهان وإلى جواره نجوى وعديلة إلى مكان اللوحة وأزاح الستار عنها وسط لهفة الجميع وتشوفهم الشديد ، وما كادت أنظار المدعوين تستقر على الصورة حتى بانت عليهم أمارات الدهشة وأخذوا يتبادلون فيما بينهم عبارات الإعجاب والتقدير .

وصاح أحد المتفرجين من فرط الدهشة :

— يا لها من تحفة نادرة ، إنى مستعد لشرائها بأى ثمن تقدره لها يا برهان ؟

فابتسم برهان وأجابه قائلا :

— إنه من دواعى سرورى أن تحظى اللوحة بتقديرك يا أستاذ عاطف ولكنى لن أبيعها لأحد .

— ولماذا ؟ إنها عمل فنى رائع ، إننى أنظر إليها نظرى إلى نموذج فنى فحسب .

— إننى أعتز بتقديرك ولكنى لن أفرط فيها لأنها مصدر إلهام وإبداع لاغنى لى عنه .

— أعتقد أنك مخطئ يا برهان ، وأرجو أن تعدل عن رأيك قريباً .

— أؤكد لك أننى لن أعدل عن هذا الرأى أبداً .

— معنى ذلك أنك لن تعرضها فى المعارض أيضاً ؟

— أجل ، هذه نيتى . إننى أحس أنها قطعة من روحى ولا أحب أن أسلم روحى لمخلوق ليتأملها أو يقتنيها لتكون حلية يزين بها جدران منزله ، إننى باختصار سأهديها لزوجتى لأنها صاحبة النصيب الأكبر فى إخراج

هذا العمل إلى الوجود .

وكانت عديلة تنصت إلى هذا الحديث والغيرة تنهش قلبها نهشاً وظلت ما يقرب من عشر دقائق ثابتة فى مكانها وهى ترتجف وقد أظلم وجهها بسحابة قاتمة تنم عما كان يعتمل فى صدرها من غيظ وحسد . وبعد أن فرغ برهان من كلامه دعا الحاضرين إلى تناول بعض المرطبات فانتهزت عديلة فرصة تفرق الضيوف والتفاف مجموعة كبيرة منهم حول نجوى وأومأت إلى برهان وعلى أثر ذلك انسحب الاثنان واتجها إلى الشرفة ، وعندما نظر إليها وجدها ممتقعة شاحبة الوجه تختلج شفتاها وتضطرب أوصالها وما إن شرعا يأخذان فى الحديث حتى رآها تضرب إحدى المناضد قائلة :

— إننى لن أحتمل فوق هذا ...

ثم أجهشت بالبكاء دفعة واحدة وهى تدمدم :

— أين صورتى ؟ ولماذا نقلتها من القاعة ؟

فدنا منها يتدارك الموقف ويهدئ من روعها ولكنها اندفعت تصخب وتشتم وتبكى ، فقال لها فى شبه ضراعة :

— لا تعلى صوتك هكذا ، افهمينى جيداً ، إننى لم أرفع صورتك إلا لأنها أصبحت قديمة وقد رآها الناس أكثر من مرة فى مناسبات عديدة .

— ليس هذا بعذر ، ما كنت لتخسر شيئاً لو تركتها فى مكانها المعهود ، ولكن يظهر أننى أصبحت فى نظرك لا أستحق أى اهتمام .

— لقد أخبرتك بالسبب ومع ذلك فإننى أعدك بأن أرسم لك صورة جديدة ، أيرضيك ذلك ؟

فرفعت إليه رأسها وأحدّت فيه بصرها وقالت :

— أهذا عهد تقطعه على نفسك ؟

— نعم ، ولكننى أشترط فى مقابل ذلك شرطاً وهو أن تعيدى إلىّ كل

ما لديك من الصور والرسائل ، فما رأيك ؟

ــ إذا رسمت لى صورة بنفس الإتقان الذى رسمت به صورة نجوى فإننى أعدك بأن أعيد إليك كل ما معى منها رغم أنها تذكار لا يقدر بثمن.

ــ اتفقنا ، والآن هلم بنا ، أحسب أن الوقت قد حان لتحية الضيوف قبل أن ينصرفوا .

وحاولت أن تأخذ بيده أثناء سيرها إلى القاعة ولكنه جذب يده منها وهو يقول فى امتعاض :

ــ دعى يدى . . ليس هذا وقته .

وكانت نجوى فى تلك اللحظة قد أفلحت فى الإفلات من حصار المعجبين بها فتحولت إلى ناحية برهان وهى تقول فى مرح :

ــ أين أنت ؟ لقد كدت أختنق.

فابتسم لها وأمسك يدها يداعبها برفق وتطلعت إليها عديلة فى تودد مصطنع ثم قالت مخاطبة برهان :

ــ يظهر أن ضيوفك سببوا لنجوى بعض المضايقات وأخشى أن يلاحقوها بعد انتهاء الحفلة .

فقالت نجوى :

ــ يجب أن نجد مهرباً ، ما رأيك يا عديلة ؟

ــ رأيى أن تأتى معى الآن إلى الأوبرج على أن يلحق برهان بنا بعد انصراف ضيوفه .

فقال برهان معترضاً :

ــ لا . . لا داعى .

فأجابته عديلة محتجة :

ــ ماذا ، أترفض دعوتى ؟

ــ كلا ، ولكنى متعب وأريد أن أستريح .

ـ ستنال فى الأوبرج من الراحة ما يكفيك .
قالت ذلك ثم نظرت إلى نجوى واستطردت :
ـ هل من الذوق أن يرفض دعوتى ؟
فأجابتها نجوى فى رقة :
ـ إننا نقدر عواطفك ، ولكن لم هذه الكلفة ؟
ـ أى كلفة ؟ أأنا غريبة عنكم .
ـ أبداً . . أبداً ، من ناحيتى أنا موافقة .
ثم التفتت إلى زوجها وقالت :
ـ يجب أن نذهب معها نزولا على رغبتها .
ـ ما دامت هذه رغبتكما فلا مانع ولكن علينا أن ننتظر حتى ينصرف جميع المدعوين .
فقالت عديلة فى ارتياح :
ـ كما تشاء .

وأخيراً ذهبوا إلى الأوبرج وجلسوا إلى إحدى الموائد وشرعوا يتناولون ما طلبته عديلة من شتى الألوان الطريفة المغرية . وانقضى العشاء دون أن يحدث ما يعكر الصفو وكانت عديلة ونجوى تتحدثان طول الوقت أما برهان فقد لزم الصمت وشغل عن حديثهما بالاستماع إلى الفرقة الموسيقية التى كانت تعزف بعض الألحان الراقصة . وتطرق بالمرأتين الحديث أخيراً إلى الكلام عن الإسكندرية وكانت نجوى هى البادئة بالحديث فأخبرتها بأنهما معتزمان السفر إليها بعد يومين لقضاء ثلاثة أسابيع فيها طلباً للراحة والتسلية ، وما إن انتهت من كلامها حتى بادرتها عديلة قائلة :
ـ فكرة مدهشة ، أتدرين أننى لم أر الإسكندرية منذ سنتين !
فابتسمت نجوى وقالت :
ـ ولماذا ؟ ألا تحبين البحر ؟ !

ـ بالعكس ، إنني أحب البحر أكثر من أى شيء خر لا لمناظره الجميلة فحسب بل أيضاً لأنني سباحة ماهرة .

ـ أحقاً ما تقولين ، إذا كان الأمر كذلك فلم لا تأتين معنا ؟

وهنا انتفض برهان فى مكانه وتملكه ضيق شديد من اقتراح زوجته وهم بأن يتكلم ولكن عديلة لم تدع له فرصة للكلام فالتفتت إلى نجوى وقالت لها :

ـ إذا كان هذا لا يضايقكما فإنه يسرنى أن أذهب معكما لأننى فى الواقع متعبة ومحتاجة إلى تغيير الهواء .

فأجابتها نجوى متهللة :

ـ إن ذلك يسرنا كل السرور ، أليست فكرة بديعة يا برهان ؟

فبدت عليه أمارات الحرج ولكنه تمالك نفسه وقال :

ـ بالطبع . . ولكن هذا يتوقف على موافقة الطرف الآخر .

فقالت عديلة :

ـ من تقصد ؟

ـ أقصد زوجك ، ربما اعترض على ذلك .

ـ كن مطمئناً ، إن زوجى لا يعترض على أية رغبة لى ومع ذلك فسأتصل به تليفونياً فى طنطا لأخبره بالأمر .

ـ اتفقنا . . والآن هيا بنا .

وغادروا الأوبرج بعد دقائق وكانت نجوى وعديلة طول الطريق تتحدثان فى مرح عن الإسكندرية وعن شواطئها وعن الملابس والتزين والاستحمام ، أما برهان فقد لزم الصمت ، وعندما ودعتهما عديلة وانصرفت إلى منزلها نظرت نجوى إلى زوجها وقالت وهى تتأمل وجهه :

ـ ماذا بك ؟ إنك شارد الذهن على نحو عجيب ، فيم كنت تفكر كل هذا التفكير ؟

فقال وقد بدت فى صوته رنة أسف وضيق :

ــ لقد كنت أسأل نفسى أما كان من الأفضل أن نذهب إلى الإسكندرية وحدنا لنستمتع بالرحلة معاً دون أن يكون معنا ثالث ، هذا كل ما فى الأمر .

ــ أرجو المعذرة ، ما كنت أظن أن هذا سيضايقك .

ــ ليس فى الأمر مضايقة ، كل ما هنالك أننى كنت أحب أن نكون وحدنا .

فقالت ملاطفة :

ــ لا موجب للأسف ، أمامنا أيام كثيرة نقضيها معاً ، ومع ذلك فإن عديلة لطيفة للغاية وستكون مصدر سرور وإيناس لنا .

فلاحت على وجهه ابتسامة قصيرة وقال :

ــ شد ما أنت طيبة يا نجوى ، إنك تحبين الناس فلا غرابة إذن أن يحبك الجميع .

وأخذ بيدها ملاطفاً وانطلق بالسيارة فى صمت صوب المنزل وهو يعجب من غرارة زوجته وطيبتها المتناهية .

الفصل الخامس عشر

وفى تلك الليلة أطال برهان التفكير فى ماضيه الآثم مع عديلة . وفى الصباح ساءل نفسه وهو يجلس إلى مائدة الفطور مع نجوى : هل يمكن أن تغتفر له نجوى خطاياه إذا اعترف لها بالحقيقة .

وأخيراً عزم على أن يستطلع رأيها بشأن التجارب الماضية عن طريق غير مباشر ، وجاءته الفرصة حين سمعها تقول له :

ـ ما بالك ؟ فيم تفكر ؟

فالتفت إليها وقال :

ـ آه ، إننى أفكر فى سؤال سألنيه أحد أصدقائى وما زلت حائراً فى أمره .

فابتسمت وقالت متلهفة :

ـ فيم سألك يا ترى ؟

فتريث لحظة ثم قال :

ـ أخبرنى أن بينه وبين عروسه سراً مكتوماً لم يصارحها به لأنه يحبها ويخشى إن صارحها به أن تكرهه وتزدريه .

ـ وهل باح لك بسره ؟

ـ نعم ، لقد قال إنه انغمس فى الخطيئة مع امرأة أخرى ، والسؤال هو : أيصارح عروسه بخطيئته أم يبقى الأمر سراً مكتوماً إلى الأبد ؟

ـ ولماذا لم يخبرها من قبل ؟

ـ قال إنه لم يفعل ذلك مخافة أن يخاطر بأمله فيها وإنه هم أن يخبرها

الحياة فى الريف – للفنان فرانسوا بوشيه –

متحف اللوفر – باريس .

السيدة ريمسكى كورساكوف – للفنان ڤينتر هالتر –
متحف اللوڤر – باريس .

مرة ولكنه جبن ، ثم بدا له أن يعاملها بأتم صراحة وأمانة ، ولا يكون ذلك بالطبع إلا بالاعتراف ، فهل يعترف ؟

فأجابته على الفور :

— كلا ، انصحه أن يبقى الأمر سراً مكتوماً وأن ينبذه ظهرياً إلى الأبد .

فأمضه هذا الجواب وفكر لحظة ثم قال :

— ولكنه يقول إن عروسه على جانب كبير من الوداعة والتسامح والطيبة وربما غفرت له .

فقالت فى إصرار :

— أنت إذا سألتنى نفس السؤال عشر مرات أجبتك بنفس وجهة نظرى : وهى أنه لا ينبغى له أن يقول لها كلمة واحدة عن تجاربه الماضية إذا أراد حقاً أن يستمتع بحبها واحترامها . يجب أن تظل صحيفته فى عين زوجته طاهرة نقية حالياً وإلى الأبد .

فأطرق برهان برأسه لحظة ثم التفت إليها وقال :

— حسناً ، والآن أظن أن الوقت قد حان لانصرافى .

وعلى إثر ذلك قبلها وانصرف .

وبعد ساعة من انصرافه حضرت عديلة إلى منزلها وهى تبتسم فى مرح كبير وبعد أن طبعت على خد نجوى قبلة حارة طويلة أخبرتها بأنها اتصلت بزوجها فى طنطا وأنه وافق على سفرها معهما ووعد بأن يلحق بهم بعد أيام قليلة .

وفى الموعد المحدد للسفر أقبلت عليهما عديلة ومكثت معهما وقتاً ثم خرجوا وركبوا السيارة وانطلقوا بها صوب الإسكندرية . وانهمكت المرأتان فى الكلام ترفهان به عن نفسيهما وسرعان ما امتلكت عديلة زمام الحديث فجعلت تنتقل من موضوع إلى موضوع وتروى لهما طرائف من حياتها

وحياة صديقاتها ، أما برهان فقد ران عليه الصمت أغلب الوقت ولم يكن له من عمل أثناء الحديث سوى التطلع إلى الطريق واختلاس النظرات إلى عديلة فى توجس وقلق كأنما يحاول أن يكشف عما يدور فى كوامن نفسها عن طريق هذه النظرات المسترقة ؛ أما نجوى فكانت من غبطتها فى غمرة تنظر إلى زوجها نظرات إعجاب وحنان وتنظر إلى عديلة فى مرح ولطف وتلهم حديثها فى شغف ملحوظ .

وكأنما عز على نجوى أن تستأثر عديلة دونها بالحديث فالتفتت إليها وقالت :

ــ أريد أن أعرف رأيك يا عديلة فى موضوع هام كان موضع حديثنا بالأمس أنا وبرهان .

وما إن سمع برهان عبارتها حتى انتفض فى مكانه كمن لسعه عقرب وحاول بإشارة من يده أن يمنعها من الكلام ولكنها كانت قد أخذت فى سرد القصة التى رواها لها عن الذنوب والخطايا والتى تقدمت الإشارة إليها . ولم يسع برهان إلا أن يسكت وراح يستمع إلى زوجته فى قلق وهو يتأمل ذبابة كانت قد اندفعت إلى المرآة التى أمامه وبدأت تدب هنا وهناك فى نشاط لا يهدأ ، وطفق يتأمل حركات الذبابة فى اهتمام عظيم كما يفعل الإنسان عادة حين يضطرب لأمر جلل أو حين يهزه شعور رهيب .

وما إن انتهت نجوى من قصتها وتعقيباتها حتى تبدلت ملامح عديلة واتخذ وجهها منظراً خبيثاً متعابثاً ولما تكلمت تكلمت فى صوت غريب النبرات وهى تحدق فى وجه برهان :

ــ من يكون هذا الصديق يا برهان ؟

وتبادل معها نظرة سريعة ثم قال :

ــ زميل فى الكلية لا تعرفينه .

ــ كيف لا أعرفه . . إنى أعرف كل زملائك فى الكلية .

— الأمر كما تقولين ولكنه زميل جديد عين أخيراً فى القسم الذى أشرف عليه .

— آه ، هذا شىء آخر .

وهنا تدخلت نجوى قائلة :

— ليس هذا هو بيت القصيد ، المهم هو أن نعرف رأيك فى الموضوع .

فقالت عديلة وهى ترمق برهان بنظرة طويلة متأملة :

— رأيى هو نفس الرأى الذى أشرت به تجنباً لفضيحة لا مبرر لها ، وإن كنت لم أفهم قط ما الذى يدفعه إلى ذلك المسلك الشاذ طالما أن زوجته تجهل كل شىء عنه وعن خطاياه ، أتعلم ما الذى يدفعه إلى ذلك يا برهان ؟

فصدر منه صوت غير واضح معناه أنه لا يعلم شيئاً عن الدافع الذى يدفعه إلى ذلك ، وعندئذ قالت له نجوى :

— إذن يجدر بك أن تبلغه أن من الخير له أن يقلع عن عزمه حرصاً على راحته وسعادته .

فقال وهو ينظر إلى بعيد :

— سأبلغه ذلك وإن كنت أعرف أن كلامى لن يثمر لأن ضميره غير مستريح .

فقالت له نجوى فى جد وحماس :

— حاول أن تقنعه فقد تكون عروسه على شاكلتى ، فأنا شخصياً قد يتسع صدرى للأخطاء البسيطة التى ترتكب بحسن نية ولكنى لا أغتفر الخطيئة ، لأن الخطيئة بشعة تكسر القلوب ولا يمكن اغتفارها بحال من الأحوال .

واجترأت عديلة على الاشتراك فى المناقشة وقالت له وقد بدا عليها السرور .

ـ أما وقد عرفت رأى نجوى فما عليك إلا أن تنقله إليه بأتم صراحة .
ثم حل صمت قصير قطعته عديلة بضحكة غامضة فجائية وقالت :
ـ اسمع يا برهان ، قل لصديقك هذا ألا يخشى شيئاً وأن يغلب عقله على ضميره لأن الضمير ليس المصدر الأوحد للسعادة فى هذه الدنيا .

* * *

وحينما وصلوا إلى الإسكندرية انطلق برهان فى شوارعها بسرعة كبيرة وفجأة لف عجلة القيادة فى عنف فاستدارت السيارة فى طريق منحدر بينما ارتمت نجوى عليه من أثر الالتفاف فما كان منه إلا أن ضمها إليه وقبل فمها فى رفق ، وترك هذا المشهد فى نفس عديلة أثراً موجعاً وأحست كأن شيئاً يتمزق داخلها ولكنها كتمت ما بنفسها ولم يبد على وجهها ما يفصح عما انتابها من غيظ وغيرة وحنق .

وأخيراً أوقف برهان السيارة أمام الفندق وهو يقول :
ـ ها نحن أولاء قد وصلنا . . هيا بنا .
وأخذت نجوى عديلة من يدها وسارتا نحو الباب وهما تتضاحكان فى وفاق يتبعهما برهان وأمارات الضيق والقلق بادية على محياه . كان يشعر أن شيئاً لا يمكن الإفصاح عنه سوف يحدث بينهم وراح طول الوقت يفكر فيما ينبغى عمله لتجنب النتائج التى قد يتمخض عنها التدبير الذى دبرته عديلة وساعدتها عليه زوجته بسلامة نية .

وعندما دخلوا البهو وقفوا يحدثون الموظف المختص فى شأن الغرف فقال لهم :
ـ هناك غرفتان متجاورتان تؤلفان مع ملحقاتهما شبه جناح مستقل ولكنهما لا تطلان على البحر مباشرة ، وهناك غرفتان تطلان على البحر ولكنهما متباعدتان ، فأيهما تفضلون ؟
فأسرع برهان يقول :

ـ أنا شخصياً أفضل الغرفتين المطلتين على البحر ، فما رأيكما ؟

فأبدت الاثنتان رأياً واحداً وهو اختيار الجناح المستقل وأصرتا على ذلك إصراراً لم يملك معه إلا النزول على رغبتهما .

وحمل الخدم الأمتعة وصعد ثلاثتهم إلى الطابق الرابع وبعد أن فتح الخدم النوافذ وقف برهان ورفيقتاه ينظرون إلى ما حولهم نظرات تنم عن إعجاب وسرور فقد كانت الغرفتان من الغرف الأنيقة الممتازة يفصلهما عن بعضهما باب مغلق وتفتح كل منهما على بهو صغير أعد ليكون بمثابة قاعة للاستقبال .

وبعد أن طافوا بأرجاء الغرفتين قال برهان :

ـ هيا بنا نأخذ حماماً لنصبح أكثر نشاطاً ثم نستعد لتناول الغداء .

وتناولوا طعام الغداء فى مرح وسرور وبعد الغداء خرجوا وطافوا بسيارتهم فى بعض الشوارع ثم تناولوا العشاء فى أحد المطاعم الفاخرة وعادوا آخر الليل منهكين بعد أن قضوا سهرة ممتعة فى أحد ملاهى الإسكندرية .

وفى الصباح توجهوا إلى شاطئ البحر للاستحمام وسرعان ما كانوا يجلسون أمام إحدى الكبائن وهم يرتدون لباس البحر . وكانت عديلة طول الوقت تتأمل جسم نجوى الفاتن اليانع وهى مصدومة بعض الشىء إذ كانت نجوى تبدو أكثر جمالا فى لباس البحر منها وهى مرتدية ثيابها . أما نجوى فكانت تنظر فيما حولها وهى تشعر بنشوة لطيفة تغمر نفسها وفى الوقت نفسه كان برهان ينقل بصره بين رفيقتيه بعين حائرة قلقة ، وأخيراً نهض من مكانه وقال :

ـ إن البحر اليوم رائع . . هيا بنا .

ونزلوا إلى الماء وبعد أن قضوا فيه بعض الوقت خرجوا وهم يتضاحكون ، وتمدد برهان على الرمال وتسللت نجوى إلى جواره فمد نحوها يده وحينما وجدها ترتعد ضمها إليه وهو يضحك برفق .

الفصل السادس عشر

ومرت ثلاثة أيام بين لهو وسهر واستحمام وغير ذلك من ألوان النشاط التى كانت تمتص الوقت امتصاصاً وبين حركات ومظاهر التعاطف التى كان يبديها كل من الزوجين نحو الآخر والتى كانت فى الوقت نفسه تثير فى نفس عديلة مشاعر الغيرة والحنق والكراهية .

ولكن الأمور جرت فى اليوم الرابع على غير ما كان يقدر برهان فقد أصيبت نجوى بانفلونزا حادة ألزمتها الفراش وحال المرض بينها وبين الخروج والاستمتاع بالحياة المرحة الفرحة التى سعدت بها منذ قدومها إلى الإسكندرية .

وأتاح مرضها لعديلة حرية لم تكن تجدها من قبل فكانت من باب التظاهر تتعاون مع برهان على تمريض نجوى وإطعامها وإشرابها العقاقير حتى إذا ما أخلدت نجوى للنوم صحبت برهان إلى البهو الكبير لتناول العشاء مع بقية نزلاء الفندق .

وكثيراً ما كانا يمكثان إثر تناولهما العشاء يدخنان ويحتسيان القهوة ويتطارحان بعض الأحاديث إلى ساعة متأخرة من الليل .

وذات مرة صحبته بعد العشاء إلى البهو وجلسا على مقعدهما المعهود حيث أخرجت علبة زينتها وراحت تصلح من شأنها لحظة ثم التفتت إليه وقالت وهى تربت يده ملاطفة :

— برهان ، هل لى أن أسألك إذا كنت حقاً تعتقد فى كل ما قلته لنا أثناء السفر؟

فقال فى شىء من الضيق :

— ماذا تقصدين ؟

— أقصد الحديث الذى سقته على لسان زميلك فى الكلية ، لا أحسب أن مصارحة نجوى بعلاقتنا فى مصلحتك يا برهان وخاصة بعد أن أدركت

من حديثها أنها ليست من النوع الذى يتسامح مع الأزواج .

وعندما سمع عبارتها شحب لونه وقال فى لهجة يشوبها الجفاء .

— أنصتى إلىّ جيداً يا عديلة ، إننى لا أحب أن أسبب لك ألما ولكن يجب أن أصارحك بأننى قررت أن أضع لهذا الموقف حداً . لقد حان الوقت الذى يجب أن تنتهى فيه هذه العلاقة وننسى كل شىء بيننا .

فسرت رعدة فى كيانها وقالت فى صوت راعش متقطع :

— هذا مستحيل . . . مستحيل . . . إنه والقتل سواء .

وفاضت عيناها بالدموع فقال برهان فى مرارة :

— أنت المسئولة عن هذا يا عديلة .

— أأنا وحدى المسئولة يا برهان ؟

— نعم ، كان ينبغى أن تدركى أن علاقتنا لا يمكن أن تدوم .

فشحب لونها واحتبس الصوت فى حلقها وقالت :

— ولماذا لا تدوم ، هل ضاع أثرى فى نفسك نهائياً يا برهان ؟

ونهضت واقتربت منه فى عاطفة جياشة وأمسكت بوجهه بين يديها وأنشأت تقرأ ما تقوله عيناه فنحاها عنه وقال :

— حذار يا عديلة . . إن الأنظار تتجه إلينا . . . أرجوك ، لا تمسينى .

— برهان ، يا حبيبى ، بالله لا تهجرنى ، لا تهجرنى .

وقبل أن يفتح فمه مالت عليه وقبلته فى شغف واشتياق . فنظر إليها مأخوذاً ذاهلا وحاول أن يتخلص منها ولكنها لم تدعه يفلت إلا بعد أن انتهبت منه عدة قبلات ارتجت لها أوصاله .

وشعر برهان بأن موقفه بلغ غاية الحرج فأخذها من ذراعها وتسلل معها إلى الخارج وهو لا يتفوه بلفظ فنظرت إليه وقالت وهى تتأبط ذراعه :

— لم أكن أتوقع أن يحدث ما حدث . . إنى لآسفة على أية حال ، يجب أن تعذرنى .

فرمقها بعين محنقة وقال وهو ينحى ذراعها عنه :
ـ ابعدى عنى . . . لا صبر لى بعد اليوم على تصرفاتك .
فقالت فى بساطة :
ـ أنا آسفة . . أكرر لك اعتذارى .
ـ أناشدك أن تتركينى ، أنا بحاجة إلى استنشاق الهواء لأننى أشعر بأننى أختنق .
ـ إذن هيا بنا نتنزه بالسيارة قليلا .
ـ قلت لك اذهبى ودعينى وحدى .
ـ لا يمكننى أن أتركك وحدك وأنت فى هذه الحالة .
وحاول أن يقاوم ويجادل فى الأمر ولكن إلحاحها الشديد أرغمه آخر الأمر على الموافقة فاستقل معها السيارة وانطلق بها يغمغم فى اهتياج كظيم وبعد هنيهة شاع فيها الصمت مدت يدها إليه ولمسته لمسة خفيفة وقالت :
ـ أما زلت غاضباً منى ؟
فصمت ولم يجبها بشىء ، وكان صمته مزدحماً بالخواطر ولما أن ضاق صدره بما يضطرب فيه من مشاعر التفت إليها وقال :
ـ اسمعى يا عديلة ، يجب أن تعلمى أنه ليس فى مستطاعى أن أمد هذه العلاقة بعد الآن .
فتطلعت إلى وجهه وقالت فى صوت يشوبه الجزع :
ـ ولماذا يا حبيبى ؟
ـ لأننى كما قلت لك أكثر من مرة لم أعد أطيق هذه الصلة التى تقوم على الجريمة والعدوان .
فأخذت يده قائلة :
ـ ليس هناك عدوان ولا إجرام يا حبيبى .
ـ إذن بم تسمين هذا ؟
ـ إنه الحب . . الحب يا برهان . . وكل شىء فى سبيل الحب مباح .

قالت ذلك ثم رفعت يده إلى فمها وانهالت عليها تقبيلا وهى تتابع قولها :

ـ أحبك . . أحبك يا برهان من صميم قلبي ولا يمكن أن أتركك أبداً .

فجذب يده من يدها وقال :

ـ يجب أن تعرفى أن كل هذا عبث لا جدوى من ورائه .

ـ أنا راضية بذلك .

ـ ولكنى غير راض . . إننى مصمم على قطع علاقتى بك نهائياً وعلى الفور ، أفهمت .

فالتهب قلبها بالغضب ونظرت إليه بعينين تومئان بشر مستطير وقالت

ـ أهذا قرارك الأخير ؟ .

ـ نعم .

ـ حسناً ، هل تدرى ماذا سيحدث غداً .

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ سأذهب إلى نجوى وأسلمها كل ما معى من الصور والرسائل .

فارتعدت فرائصه وقال :

ـ ويلك يا عديلة ، أترضين لنفسك الفضيحة .

ـ لست أبالى ، فليحدث ما يحدث .

ـ عديلة ، أأنت جادة فى قولك ؟ هل الرسائل والصور معك حقاً ؟

ـ نعم ، إنها فى غرفتى .

ـ ولماذا أحضرتها معك ؟

ـ لأننى كنت أتوقع أن يحدث منك ما حدث .

ـ ألم نتفق على أن تعيديها إلىّ فى مقابل الصورة التى وعدتك بها ؟

ـ لقد عدلت عن رأيى .

ـ ولماذا ؟

ـ لأنه ثمن بخس .

— وأى ثمن يرضيك فى مقابل إعادتها لى ؟
— ساعة واحدة بجوار مخدع نجوى تكفينى !
فثار فى نفسه بغض قاتل وقال :
— يا لفسادك ، أى غريزة وأى لذة يدفعانك إلى هذا الانحطاط .
فأجابته وعلى فمها ابتسامة صفراء :
— إنك لا تقدر ما يملكنى من نشوة حين أتمكن من لقائك فى غرفتى قبل فراقنا الأليم .
— ونجوى التى وثقت فيك كل هذه الثقة ، ألا تقيمين وزناً لشعورها ؟
— ما لها نجوى ، أما يكفيها أننى تنازلت عنك لها ، ثم إنها لن تعرف شيئاً لأنها تناولت أقراصها المنومة وان تصحو كالعادة قبل طلوع النهار .
واحتدمت بينهما مناقشة حامية ، وكانت لهجتها كلها حزم فحملت برهان على أن يبت فى الأمر على ما تهوى ، وعاد معها إلى الفندق وهو فريسة لغضب شديد .

* * *

وبينما كان هذا يجرى بين عديلة وبرهان كانت نجوى تغط فى نوم عميق على أثر تناولها أقراص النوفالجين التى اعتادت أن تأخذها كل ليلة لتستعين بها على التخلص من آلام الحمى ، ولكنها فى هذه الليلة لم تهنأ بالنوم كالليالى السابقة فما هى إلا ساعة حتى استيقظت من نومها مضطربة على جرس التلفون يدق فى غرفتها فى رنين ملح غريب فنهضت واعتدلت فى فراشها وهى تدعك عينيها وأمسكت بالسماعة وحينئذ سمعت صوت سيدة تقول :
— مساء الخير .
— مساء الخير .
— أرجو ألا أكون قد أزعجتك .

ـ من أنت ؟

ـ أنا سيدة لا تعرفينها ، ولدىَّ أشياء هامة أريد أن أفضى بها إليك ، فهل أستطيع أن أراك الآن ؟

ـ أشياء هامة ! ! ماذا ؟ . . هل حدث شيء!

ـ ستعرفين كل شيء إذا سمحت لى بعشر دقائق من وقتك .

ـ إننى متعبة وبرأسى صداع ، فهل لك أن تؤجلى ذلك إلى الغد .

ـ أفضل أن يكون ذلك الآن .

ـ إذن تفضلى .

وجلست نجوى على مقعد قريب وهى تجفف عرقها وتروح وجهها وفى صدرها ضيق من وطأة الحمى ومن هذه المكالمة الغريبة الغامضة ، وبعد قليل سمعت طرقاً على الباب وما إن أذنت للطارق بالدخول حتى رأت أمامها سيدة عجوزاً نافذة النظرات ، صلبة الملامح ، جهمة الوجه ، وبعد أن حيتها جلست إلى جوارها وهامت فى صمت مضطرب ، ولاحظت نجوى أنها قلقة تريد أن تتكلم وكأنها لا تدرى كيف تبدأ الكلام ، وأخيراً تغلبت المرأة على قلقها وحيرتها وقالت :

ـ أنت هنا وحدك بالطبع ، لأن رفيقيك ما زالا بالخارج .

ـ آه ، ومتى خرجا ؟

ـ منذ وقت قصير .

ـ ثم عاودها صمت فالتفتت إليها نجوى وقالت :

ـ إذن أنت تقيمين معنا فى الفندق ؟

ـ نعم .

ـ هل أنت فى حاجة إلى شيء ؟

ـ كلا ، ولكنى جئت لأتحرى الحقيقة ولإسداء النصيحة .

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ أقصد أننى كنت أراقبكم وفى كل مرة كنت أرى عجباً

ـ لست أفهم ، لماذا كنت تراقبيننا ؟

— لأننى شعرت بأن إحداكما مخادعة والثانية مخدوعة وأنا بطبعى لا أطيق أن يخدع إنسان إنساناً آخر ، والآن يبدو لى من معالم الطيبة البادية عليك أنك المخدوعة ، ألست أنت زوجة هذا الشاب الذى جاء معكما إلى الفندق ؟

فانتابت نجوى رجفة ارتجت لها أوصالها ونظرت إليها مأخوذة وقالت :

— نعم ، إنه زوجى ولكن ما الذى تعنيه بكلامك هذا ؟

— قبل أن أصرح أحب أن أعرف موقع السيدة الأخرى منكما ، أهى إحدى قريباتك ؟

— كلا ، إنها صديقة من أعز صديقاتى .

— آه ، إذن أستطيع أن أصارحك الآن بكل شىء ، باختصار إن صديقتك هذه تخونك مع زوجك .

فاعترت نجوى هزة شديدة وقالت فى انفعال :

— مستحيل . . مستحيل . . هذه أوهام . . كيف تجرئين على التفوه بهذا الكلام ؟

فأجابتها فى ثقة ويقين :

— بل هذه هى الحقيقة ، لقد رأيتها بنفسى وهى تعانقه وتقبله بصورة فاضحة إن الأمر لم يعد خافياً على أحد بعد أن لفتا الأنظار بمداعباتهما الوقحة .

فحدقت نجوى فيها فى جزع وقالت :

— أواثقة أنت مما تقولين ؟

— كل الوثوق ، وإذا لم تصدقى فعليك أن تفتحى عينيك جيداً وعندئذ سترين كل شىء فى وضوح ، إننى ما جئت إلا لكى أسدى إليك النصيحة .

— يا إلهى ، وأية نصيحة يمكن أن تسديها إلىّ حيال هذه النكبة .

— نصيحتى أن تتظاهرى بأنك تجهلين كل شىء حتى لا يرتابا فى الأمر كى تقفى بنفسك على الحقيقة ، وعليك بعد ذلك أن تعمدى إلى شىء آخر .

— ما هو ؟

ـ هو أن تطردى هذه الأفعى وتواجهيها بعارها قبل أن تفسد حياتك وتنزل بك كارثة محققة .

فنظرت إليها بعين محتقنة وقالت فى اهتياج :

ـ أطردها وحدها ! وهو ، أليس شريكاً فى إثمها ، أليس هو الذى شجعها على الخيانة ، إذا كان ما قلته صحيحاً فليس هناك خاطئ سواه ، ولسوف أعرف كيف أدبر أمرى .

ـ أرجو ألا تتسرعى فقد يكون لزوجك بعض العذر فى تصرفاته .

فقالت وقد تملكتها موجة من السخط والانفعال :

ـ أى عذر يمكن التماسه للزوج الغادر ، أى شىء فيها يغريه بخيانة زوجة مثلى ، أين هى منى ، ولكن لا شك أن الذنب فى ذلك ذنبى لأننى وثقت به كما يثق الطفل بأمه ، وأمنت إليه وإليها كما يأمن الطفل إلى أمه فكان جزاء ثقتى وإخلاصى الخيانة والغدر ، حقاً إن الحياة كلها عبث وخداع .

فقالت تهدئ روعها :

ـ لا تيأسى كل هذا اليأس ، كل شىء يمكن إصلاحه وخاصة فى مثل حالتك .

ـ ماذا تعنين بذلك ؟

ـ أعنى أن سيدة رائعة الجمال مثلك لا يمكن أن ينصرف عنها زوجها إلا لنزوة طارئة ، إن الرجال يا بنتى مخلوقات معقدة ونزواتهم ودوافعهم أكثر تعقيداً مما نتصوره فيهم ، فحاولى أن تعرفى السبب فيما حدث وكيف حدث وعالجى الأمر فى ضوء الحقائق التى تظهر لك بمنتهى الحكمة والتروى .

ـ لن أحاول أن أفعل شيئاً من هذا ، إذا ثبت أن زوجى قد تورط فى الخيانة معها فهو فى نظرى رجل مخادع لا يستحق عناء التفكير فى الدوافع التى دفعته إلى الغدر والخيانة .

وأخيراً نهضت المرأة وودعتها وانصرفت وهى تتمتم كأنها تستغفر لذنب ارتكبته .

الفصل السابع عشر

وبعد خروج المرأة شعرت نجوى برعدة قاتلة تسرى فى أوصالها ، لقد كانت شقية لثقتها العمياء بالناس وكانت بخيبة أملها فى زوجها الثانى أكثر شقاء .

واستولى حديث المرأة على تفكيرها كله ،وفى محيط التفكير برزت كلمة الخيانة فصدمتها وأفاضت على وجهها أمارات تدل على القسوة والكبرياء المجروحة . وظلت جالسة فى مكانها ورأسها بين يديها يغمرها عذاب مضن وتسيطر عليها أفكار ممضة وفى أثناء ذلك كان ضوء المصباح الجانبى الخافت ينعكس على مظاهر الأشياء المحيطة بها فيكسبها منظراً خبيثاً بشعاً فاضطربت وزاد انقباضها وضيقها بمرور الزمن ،وأخيراً نهضت واقتربت من النافذة وراحت تطل منها على الشارع وفى نفسها أشتات من المشاعر الكامنة . وظلت ترقب الشارع حتى تعبت عيناها وفجأة لمحت سيارة زوجها تتهادى عن كثب ثم تقف على بعد أمتار من باب الفندق فتطلعت إليها وقلبها يخفق بعنف فإذا بزوجها يهبط أولا وبعد أن عاون عديلة على النزول مالت إليه وقبلته قبلة حافلة وابتعدت وظل لحظة يرقبها ثم ركب سيارته ومضى بها حتى ابتلعه الظلام . وظلت نجوى لحظة تحدق فى اتجاهه ثم عادت إلى فراشها يملكها خاطر مثير ، لقد تجلى الموقف وأصبح الأمر ظاهراً فى وضوح ، إن الخائنين يحاولان بهذه المناورات التستر على علاقتهما المشينة حتى لا يرتاب فى أمرهما أحد . ولكن هل ينطلى ذلك عليها ، إنهما سيعرفان هذه الليلة أنها ليست ألعوبة فى أيديهما وأن كرامتها لا يمكن أن تمزق وتداس بالأقدام بسهولة كما يتوهمان ، وتحت تأثير هذا التفكير قررت أن تتظاهر بالنوم حتى تتمكن من معرفة مكنون سرهما ودخيلة نفسيهما دون أن يفطنا للأمر .

وارتمت على سريرها فى حالة ألمية ،ومرت دقائق خالتها دهراً وفجأة

سمعت وقع أقدام تقترب من الباب وفى اللحظة التالية دلف برهان إلى الحجرة وهو يتسمع ويمشى مشية متلصصة ثم اقترب منها وأخذ يرقبها فدله تنفسها على أنها مستغرقة فى النوم وحينئذ دار على عقبيه وانسل خارجاً بنفس الحالة التى دخل بها .

وعلى إثر خروجه جلست نجوى فى فراشها مغيظة محنقة وقد بلغ هياجها النفسى أقصى مداه ، وتطلعت إلى الباب المغلق الذى كان يفصل بين الحجرتين وانحنت برأسها وهى تنصت ملياً وقد راحت أذناها تفسران كل حركة من الحركات التى تحدث فى الغرفة الأخرى وأخذت تقول فى نفسها : ها هو يدخل وها هى عديلة تستقبله وتغلق الباب وراءه ، إنه يروح ويجىء فى الغرفة ، إنها تتجه إلى الصوان ، إنها تفتح الصوان ثم تغلقه ، إنهما يجلسان ويتحدثان ، إنهما يصمتان فجأة ، ترى ما الذى يحدث الآن ؟

ولنعد إلى برهان فإنه ما كاد يغادر حجرة نجوى حتى اتجه إلى غرفة عديلة ووقف لحظة فى الردهة الصغيرة يتسمع ، وكان قد وضع خطة لانتزاع الرسائل والصور منها دون أن ينيلها ما تبتغيه منه ومع ذلك فقد كان اضطرابه أكثر ألف مرة من اضطراب أولئك الذين يساقون إلى الموت ، واقترب من الباب ثم طرقه بيد مرتعشة وخيل إليه أنه أحدث جلبة شديدة . وبعد لحظة فتحت له عديلة الباب فدلف إلى الداخل وأغلق الباب وراءه .

وفطنت عديلة إلى اضطرابه فنظرت إليه نظرة تتيم وولهه ثم دنت منه وطوقته بذراعيها العاريتين وقبلته فى شغف شديد ، وكانت قد رتبت كل شىء أحسن ترتيب فقد ارتدت غلالة حريرية بدت فيها وكأنها عارية متجردة من الثياب وأعدت منضدة صغيرة عليها زجاجة وبعض الأكواب ، وكان فى ذهنها هى الأخرى خطة عزمت على تنفيذها وهى أن تترك باب غرفتها غير موصد بالمفتاح وأن تستبقى برهان معها أطول مدة ممكنة حتى إذا ما انتبهت نجوى على رنين الأكواب وعلى الجلبة التى قررت أن تحدثها أمكن لنجوى مفاجأتهما دون عائق .

وكان برهان جد أمين على مراعاة الشرف والواجب فلم يشأ أن يتأخر

عن تنفيذ ما رسمه خطوة خطوة وفقاً للخطة التى رسمها ؛ وأحس فى نفسه بعض الهدوء حين تذكر وهو فى موقفه بأنه سيجردها بعد لحظات من السلاح الذى طالما هددته به . أما هى فقد غمرتها موجة من الحب القوى ، ولم تستطع ضبط عواطفها الثائرة فنهضت وارتمت عليه دفعة واحدة وأخذت تعانقه وتقبله فى شغف شديد وهى لا تفتأ بين وقت وآخر ترسل ضحكات عالية تفيض بالعواطف الثائرة . فنظر إليها غاضباً وقال :

— لا ترفعى صوتك هكذا .

فقالت له غير هيابة :

— لا تخف . . لن يسمعنا أحد .

فمكث يحدق فيها لحظة ثم ابتدرها قائلا :

— أين الرسائل والصور ؟ أريد أن آخذها سريعاً .

فقالت عابثة :

— ولم السرعة يا حبيبى ؟

وأخذت تقبله وهى تتصايح وتضج مرحاً وفجأة سمعا وقع خطوات تقترب من الباب وقبل أن يتحركا من مكانهما فتح الباب دفعة واحدة وفى اللحظة التالية كانت نجوى تقف أمامهما وجهاً لوجه .

ووقفت نجوى تنظر إليهما ووجهها يتقلص بغضاً واحتقاراً وكراهية ولكنها لم تنطق بكلمة ونهض برهان بعد أن دفع عديلة جانباً ونظر إلى نجوى وشفتاه تضطربان بلا إفصاح ، ثم تقدم ناحيتها وقال فى صوت راعش

— نجوى ، أنا . . .

فانفجرت فيه :

— أنت مجرم . . . سافل .

ثم مشت بخطوات صارمة نحو عديلة وصاحت فى وجهها :

— ما أنت إلا أفعى . . . ما أنت إلا أفعى .

فنظرت إليها عديلة وقالت :

— أتجرئين على شتمى . . .

فاتقدت عينا نجوى وصاحت وهى تهتز من قمة رأسها إلى أخمص قدميها :

— أنت لا تستحقين الشتم بل الصفع يا خائنة .

فأجابتها فى برود :

— عجيب أمرك ؟ ابن خالتى يزورنى فى غرفتى لأسليه ويسليني ، أفى ذلك عيب ؟

فتقلص وجه برهان غضباً لدى سماعه عبارة عديلة وبغتة اندفع نحوها وصفعها على وجهها وهو يصيح .

— أيتها الشريرة . . سأعرف كيف أقتص منك .

ثم أسرع ناحية نجوى محاولا تهدئة روعها ولكنها دفعته بذراعها وولت مسرعة إلى حجرتها وأغلقت على نفسها الباب بالمفتاح .

فأسرع وراءها وهو يناديها ثم وقف أمام باب غرفتها يتوسل قائلا :

— نجوى . . دعينى أوضح لك ما غمض عليك .

فصاحت به من الداخل :

— اذهب . . لا أريد أن أسمع منك شيئاً .

— أرجوك . . يجب أن تعرفى الحقيقة .

ولكنه فى هذه المرة لم يسمع منها شيئاً فأخذ يتوسل ويستعطف ولكنها لم تجبه بحرف . ولما طال انتظاره دون طائل وقف يفرك جبينه بيده لحظة ثم عاد أدراجه يترنح إلى غرفة عديلة وكأن غمامة قد غشت بصره . وما إن تخطى عتبة الباب حتى أسرعت إليه عديلة تلاطفه وتهون الأمر عليه ثم قادته إلى المنضدة وقدمت إليه كأساً وهى تقول :

— هون عليك ، إنك لن تخسر شيئاً طالما أنا معك .

فأخذ الكأس من يدها وأفرغها فى جوفه دون أن يتكلم أو يلتفت إليها ، وظل صامتاً لحظة وفجأة مشى فى صدره بغض قاتل نحو المرأة التى مكرت به ودمرت حياته وتلفت حوله مهتاجاً فرأى شيئاً يلمع فوق منضدة صغيرة ولما استقر بصره عليه عرفه ، فإذا به مقص متوسط الحجم ، فمد يده فى

حذر وأمسك به ، وفى لمح البصر انقض على عديلة وغرس المقص فى عنقها فصعدت منها صرخة مكبوتة وارتفع ذراعها مرتين فى الهواء فانهال عليها طعناً حتى كفت عن الحراك . وانتظر برهان لحظات وهو يضغط بيده على رأسها ثم ألقى بالمقص وتهاوى على مقعده وبدأ يفكر ، ولكنه وجد من الخير ألا يفكر فى فعلته التى كانت تبدو مهوشة فى ذهنه ، واكتفى من كل ذلك بأن المرأة التى مزقت حياته شذر مذر قد خرجت من حياته نهائياً ، وهز رأسه ببطء ثم رفعها وراح ينظر إلى جثة عديلة فى ذهول وهو يتحسس جسمه بيده ليتأكد أنه ليس فى حلم ، وأخيراً بدأ يفهم الموقف بعد أن تبددت الغشاوة التى كانت تخيم على بصره ، وقام من مكانه وراح يقطع الغرفة جيئة وذهاباً ولكنه كان يتحرك كمن يسير أثناء نومه .

وفجأة تذكر موضوع الرسائل والصور فأسرع إلى الصوان وأخذ يقلب كل ما فيه وأخيراً وقع بصره على مظروف أبيض فتنهد ثم فض المظروف فوجد به رسالتين وثلاث صور فتناولها وجلس على مقعد كبير وأنشأ يتصفحها ، ومرت أمام عينيه الخطايا الفاحشة التى ارتكبها مع عديلة فى موكب زرى مخجل ولكنه أحس بشىء من الراحة لأن عيون الناس لن تقع على هذا الفحش وتعرف منه جرائم روحه الآثمة . وبعد لحظات قام من مقعده وأمسك بمحتويات الظرف وأشعل فيها النار وظل يرقبها حتى استحالت رماداً . وجلس مرة ثانية على المقعد واضعاً رأسه بين يديه مرتكزاً بمرفقيه فوق ركبتيه وهو يمعن فى التفكير .

الفصل الثامن عشر

ونهض بعد دقائق وراح يقطع الحجرة ذهاباً وإياباً وهو يرهف سمعه لكل خفقة ، وأخيراً اتجه ناحية الباب المغلق الذى يفصل بين الحجرتين ووقف لحظة صامتاً ثم شرع يطرق الباب طرقاً خفيفاً وهو يقول بصوت متهدج :

— نجوى . . نجوى . . أتوسل إليك أن تسمعينى . . . أريد أن أعترف لك بالحقيقة .

وردد عبارته عدة مرات حتى جف حلقه وبعد صمت طويل سمعها تقول :

— قلت لك إننى لا أريد أن أسمع شيئاً .

وكان صوتها جافاً ينم عن الزراية والاحتقار ، فبلل شفتيه اليابستين وقال :

— أضرع إليك أن تسمعينى لتعرفى الحقيقة .

فأجابته قائلة :

— وفر على نفسك الكلام ، يجب أن تعرف أنه لن يكون لى بك شأن بعد الآن .

— أؤكد لك يا نجوى أنك لو عرفت الحقيقة لرثيت لحالى .

— احتفظ بالحقيقة لنفسك فهى لم تعد تهمنى بعد أن انكشف أمرك .

— نجوى ، إن الوقت ضيق وأنا فى محنة فدعينى أقص عليك سر وجودى مع عديلة .

— لست أريد أن أعرف قصتك معها أياً كانت ظروفها ، أو تحسب أنى أبالى الآن بما حدث ، ثق أن أمرك وأمرها لم يعد يهمنى ، ابق معها أو اذهب معها حيث شئت فأنت حر ، هذه كلمتى الأخيرة ، والآن دعنى وشأنى .

— لحظة واحدة يا نجوى . . إن عديلة لم يعد لها وجود . . . لقد قتلتها .

فسمعها تصرخ قائلة :

— أنت قتلتها . . يا إلهى . . هذا مستحيل . . مستحيل .

— بل هذه هى الحقيقة يا نجوى .

فقالت فى فزع :

— وكيف . . كيف استطعت أن ترتكب هذه الجريمة المنكرة . . كيف واتتك الشجاعة على أن تقتل ؟!

— لست أدرى كيف قتلتها ، ولكن ذلك كان ديناً علىّ لك ولنفسى بعد أن دخلت بيننا وأوقعتنا فى حبائلها ، ولكن هذا لا يعنينى الآن ، كل ما يعنينى هو أن تثقى بأننى أحبك وأننى لم أتورط فى خيانة أو إثم طوال الأيام التى عشتها معك .

ثم قص عليها سيرته مع عديلة ولما انتهى من قصته صمت لحظة ثم قال :

— هذه هى الحقيقة يا نجوى رويتها لك بأتم صدق وأمانة لترينى على حقيقتى قبل أن أفارقك إلى الأبد ، لقد قضى الأمر يا نجوى فدعينى أودعك من وراء هذا الباب لأننى لا أحب أن تقع عيناك على منظرى البشع ويدى الملوثتين فيتحول شعورك نحوى وتلازمك صورتى الرهيبة طول حياتك ، فقولى لى الآن إنك لا تضمرين لى كراهية أو ازدراء قبل أن أذهب لأسلم نفسى للشرطة

فسمعها تقول فى صوت مختنق :

— أنا . . أنا . . أنا لا أستطيع بعد هذا أن أكرهك أو أزدريك يا برهان .

— ذلك غاية مرادى . . الوداع يا نجوى .

قال ذلك ومشى بخطوات متثاقلة نحو السلم ، وكان قد اعتزم أن يسلم نفسه للشرطة ولكنه شعر فى الوقت نفسه بحاجة إلى أن يملأ رئتيه بنسيم الحرية قبل أن تتلقفه أيدى المحققين ورجال الشرطة ، وتوقف على السلم عدة مرات ولما لم يسمع شيئاً خرج إلى الشارع وهو يجر قدميه جرا . وفى هذه الأثناء كانت نجوى تقف وسط غرفتها كتمثال لا روح فيه من شدة ما انتابها من خوف وهلع وبعد قليل تنبهت فى نفسها غريزة الاستطلاع النسوية فذهبت إلى الباب وانحنت بلا وعى ونظرت من ثقب المفتاح وما أن وقع بصرها على رأس عديلة المنكوء على المائدة وسط بركة من الدماء حتى تراجعت إلى الوراء مذعورة وفى اللحظة التالية سقطت على الأرض مغشياً عليها .

وظل برهان يسير فى الظلام على غير هدى وقد استولى عليه الشعور بالضياع واليأس والشقاء ، وكان رأسه أثناء سيره يموج بالأفكار والخواطر : كيف سمح لقوى الشر أن تضعه بهذه السهولة تحت رحمتها ، ترى هل سيكون مصيره الشنق شأنه فى ذلك شأن هؤلاء الذين يهيمون على وجوههم ليلا يقتلون من يصادفونه فى الظلام ولا حافز لهم سوى الرغبة فى القتل وسفك الدماء ، إنه على أية حال يفضل الموت على عذاب السجون فعذاب ساعة أرحم من عذاب عدة سنين . . . ترى ماذا تفعل نجوى الآن . . . ما الذى سينتهى إليه أمرها بعد هذه الكارثة . . . هل ستقضى بقية أيامها فى عزلة أو ستعود إلى زوجها الأول أو ستتزوج من رجل ثالث . . إنه شخصياً يفضل أن تعيش فى كنف زوج جديد إذا كانت سنة الحياة ستضطرها حتماً إلى الزواج وإلى نسيانه...

وأصابه هذا التفكير بدوار شديد جعله يتهاوى على أحد المقاعد المتناثرة فى طريق الكورنيش ، وعلى أثر ذلك عادت إلى ذاكرته دقائق الجريمة شيئاً فشيئاً ومشت فى مخيلته بأقدام خضبتها الدماء فاسترجع كل ما جرى فى وضوح مخيف وماج رأسه من جراء ذلك بشحنة من الخواطر المؤلمة

فامتقع وجهه وارتعدت أوصاله وزاغت نظراته فى منظر البحر المترامى أمامه، وأخيراً أحس أن التفكير فيما جرى سيودى بعقله فنهض من مكانه وهو يقول لنفسه : فيم كل هذا التفكير وأنا امرؤ هالك؟!

ومشى صوب قسم الشرطة وهو يهتز كالمقرور ، وكانت دور اللهو والمقاهى ما تزال تغلق أبوابها، وعند أبوابها كان الناس يتدفقون إلى الخارج فى جماعات فخيل إليه وهو يسرع بخطواته أن جميع الناس يواجهونه بعيون ملتهبة ووجوه متجهمة فاقشعر بدنه، وازداد ارتجافه، ثم خيل إليه بعد ذلك أنه يسمع أصواتاً عارمة تكتنفه من هنا وهناك وتملأ أذنيه طنيناً مزعجاً أحس معه بتخاذل كاد يفقده وعيه ولكنه تماسك واستجمع قواه وتم شطر قسم الشرطة بينما كانت الأصوات تدوى فى أذنيه ولا ينقطع لها دوى .

وأعلن الخبر بعد ذلك سريعاً ، وماج الفندق الذى كان ساكناً هادئاً بخفق الأقدام المتكاثرة ، وما هى إلا دقائق حتى شاع فى كل شوارع المنطقة ومساكنها أن سيدة جميلة قد قتلت فى فراشها فعينة بيد عشيقها.

الفصل التاسع عشر

ولم يستغرق تحقيق الشرطة مع برهان وقتاً طويلا فقد اعترف بكل شيء وزاد على ذلك قوله بأن فكرة القتل كانت قد تأصلت جذورها فى رأسه منذ زمن بسبب المحاولات الدنيئة التى بذلتها عديلة للإساءة إليه وتحطيم حياته ، وبعد ذلك ظل طول التحقيق صامتاً لا ينبس بكلمة وهو يعزى نفسه فى فلسفة حزينة فيقول :

— لم يكن من المعقول أن تدوم هذه السعادة فقد كانت أكثر مما ينبغى لشخص آثم مثلى . لقد استنفدت حظى منها وليس بين أصدقائى ومعارفى من أوتى مثل سعادتى ومن الواجب أن أواجه مصيرى بشجاعة ، إننى لا أخاف الموت وإن كنت أخاف مقدمه ولكنه على كل حال أفضل من الشقاء الذى أعانيه وأفضل ألف مرة من العذاب الذى يصطليه الناس فى غياهب السجون ...

وعندما أتوا بنجوى لاستجوابها دخلت بخطوات متثاقلة ووقفت أمام المحقق شاحبة الوجه شاردة الذهن تحيط بعينيها هالات اختلط فيها السواد بالزرقة ، وبصوت راعش متهدج بدأت تدلى بأقوالها فدافعت عن زوجها أصدق دفاع وقالت إنه كان يحبها ويخلص لها ولم يحاول قط أن يخونها وإن عديلة هى التى دفعته بلؤمها وخستها وكيدها إلى الهاوية ، وساقته إلى ارتكاب الجريمة فى لحظة من لحظات الغضب التى تفقد الإنسان كل شعور بالتعقل والاتزان .

وحاول المحامى الذى وكلته نجوى أن يقنع برهان بضرورة تغيير أقواله ولكنه وجد فى ذلك مشقة وعنه عجزاً فقد أصر برهان على أقواله وقال للمحامى :

— كلا يا سيدى لن أغير من أقوالى شيئاً ، لقد أتيت فى حياتى كثيراً من الذنوب المخجلة ولن أضيف إلى قائمة ذنوبى ذنباً آخر وهو الكذب .

فقال المحامى وهو يرمقه فى عجب ودهشة :

— ومن قال إننى أريد منك أن تكذب ، اصغ إلىّ جيداً يا برهان ، إننى لا أريد منك إلا أن تقول بأنك لم ترتكب الجريمة عن عمد وسبق

إصرار ، هذا كل ما أريده منك أما الباقى فدعه لى .

فأجابه برهان قائلا :

— لست أدرى ما جدوى ذلك بعد أن دوّنوا أقوالى ووقعت عليها بيدى ، إن يد العدالة ساحقة رهيبة ولا يمكن التحايل عليها .

— هذا صحيح ، ولكن العدالة كما هى ساحقة رهيبة فهى فى الوقت نفسه تحلم بأن تكون عادلة وأن تحكم فى تؤدة ورصانة بعد أن تحلل البواعث وتتفهمها حق الفهم . .

— لا تتعب نفسك ، دعنى أواجه مصيرى بضمير مستريح

— أتعلم حين أتركك أى مصير سيصير إليه أمرك ؟

— نعم ، إنه الموت ولكنى لا أخشاه .

— ولكن الموت لن يكون كارثة عليك وحدك بل هو كارثة على زوجتك.

فزفر زفرة حارة ثم قال :

— إن عذاب زوجتى لن يطول ، بمرور الزمن سوف تنسانى .

وبعد حديث قصير نهض المحامى واستأذن فى الانصراف وهو يهز رأسه من العجب والدهشة ، وعندما وصل إلى الباب ناداه برهان وقال له والحسرة تأكل قلبه.

— إذا قابلتها فقل لها إننى لم أحبها يوماً قدر ما أحبها الآن ، وإننى ما فضلت الموت إلا لأننى أعلم أنه خير لى ولها على السواء ، ثم ارجوها بلسانى ألا تحضر لزيارتى لأننى لا أحب أن ترانى وأنا فى هذه الحال.

فابتسم له المحامى ابتسامة حزينة وحياه وانصرف . وكانت نجوى تنتظره فى مكتبه على أحر من الجمر فلما رأته هرولت إليه وسألته فى لهفة عن نتيجة المقابلة فأخبرها بما حدث ، وما إن انتهى من كلامه حتى بان عليها الجزع وقالت وعيناها تتسايل منهما الدموع :

— يا إلهى ، وهل ستتركه هكذا ، ألا تستطيع أن تفعل شيئاً ، أتوسل إليك أن تبذل كل ما بوسعك لإنقاذه ، إن برهان لا يمكن أن يؤذى بعوضة ، أؤكد لك أنه ارتكب جريمته فى ساعة جنون .

فقال وهو يضغط على يدها فى إشفاق : أعدك بأن أفعل كل ما فيه الخير له بالرغم من أفكاره الغريبة التى لا أفهمها .

وعادت نجوى بعد انتهاء التحقيق إلى منزل أبويها وعاشت معهما حياة شاحبة يملؤها الحزن والبؤس والشقاء . وظلت حبيسة البيت لا تبارحه انتظاراً للمصير الذى سينتهى إليه أمر زوجها ، وطال الانتظار حتى بلغ من عمره البشع بضعة شهور وأخيراً جاءها النبأ المذهل المفجع . . نبأ انتحار برهان قبل نظر قضيته بأيام ، وكان لهذا النبأ المروع وقع الصاعقة على نفسها فامتلأ قلبها أسى ولوعة وانحدرت الدموع من عينيها غزيرة حارة ، ثم عاشت بعد الكارثة وهى كارهة للدنيا بأسرها يضيق صدرها بكل شىء وبكل إنسان . ولاحظ والدها ما آل إليه أمرها فتملكه قلق شديد عليها وعلى صحتها وحاول أكثر من مرة أن يصرفها عن حزنها العابس وألمها العميق ولكن كل جهوده فى هذا السبيل ذهبت أدراج الرياح . وأخيراً انتهز فرصة انتدابه لمهمة رسمية فى السودان فاصطحبها معه على البيئة الجديدة تصرفها عن آلامها الثقال ووحدتها المضنية ، وعاشت نجوى مع أبيها خمسة أشهر ثم عادت معه إلى القاهرة كما خرجت منها كاسفة البال ، كسيرة القلب ، ملتاعة الفؤاد ، وعاشت كما عاشت قبل سفرها حياة مظلمة ليس فيها بصيص من نور اللهم إلا هذا الشعاع الذى كان يأتيها من تفكيرها فى ابنتها عفاف فيعينها على الصبر والاحتمال .

وتعاقبت شهور وهى تحيا هذه الحياة الخانقة الموحشة وعلى الرغم من حرص أبويها على إسعادها وتوفير كل أسباب الراحة لها فإنها كانت تحرص على تجنب مرآهما أو مطارحتهما الحديث إلا حين كانت تدعو الحاجة .

وذات يوم دخلت عليها أمها حجرتها وهى جالسة تقتل الوقت بالقراءة ثم تدانت منها وقبلتها وجلست إلى جوارها وهى صامتة لا تنبس ووجهها هو هو ذلك الوجه الذى يظله الحزن الهادئ ويشيع فيه الحب والحنان ، ولما طال صمتها نظرت إليها نجوى وقالت لها : خيراً يا أمى .

فضمتها إلى صدرها ضمة ملؤها الحب والحنان وقالت :
ـ إلى متى ستظلين على هذه الحال يا بنتى ؟
ـ أية حال تعنين ؟
ـ هذا الحزن ، من الظلم يا نجوى أن تستمرى على هذه الحال .
ـ وماذا تريدين منى أن أفعل بعد هذه المصائب التى حطت علىّ ؟
ـ هوّنى عليك يا بنتى ، إن الحياة يجب أن تحتمل بخيرها وشرها ، ولا تنسى أنك ما زلت فى مقتبل العمر والمستقبل منفسح أمامك .
ـ المستقبل !! أى مستقبل يمكن أن آمل فيه بعد أن جربت حظى مرتين فلم أجد إلا التعاسة والشقاء ؟!
ـ لا تيأسى كل هذا اليأس ، ثقى أن الله سيعوضك خيراً فى المرة الثالثة ، لقد جئت لأخبرك بأن شاباً من أسرة راقية تقدم إلى والدك يطلب منه يدك ، كما اتصلت بنا أم كمال فى شأن عودتك وما عليك إلا أن تختارى بين العودة إلى كمال أو الزواج من العريس الجديد لأننا لا نريد أن نفرض عليك رأياً ، كل ما ننشده هو أن نراك سعيدة يا نجوى .
فحملقت فيها فى دهشة واستنكار وقالت لها : هذا مستحيل... مستحيل.
ـ ولماذا يا نجوى؟
ـ لأنى غير مستعدة لأن أشقى نفسى وأشقى غيرى معى مرة أخرى ، لقد نلت كفايتى من الزواج ومن الشقاء ، ومن الخير لكمال ولهذا الشاب أن يبتعدا عنى لأننى أعرف أننى شؤم على كل من يتصل بى .
ـ لاتقولى هذا يا نجوى ، إنك بكلامك هذا تزيدين حزنى وشقائى .
ـ أنت التى تزيدين شقائى يا أمى بالكلام فى هذا الموضوع ، فإن كنت تحبيننى حقاً فلا تعاودى الكلام فى هذا الموضوع .
ـ كما تشائين يا بنتى ، ولكنى أرجو أن تفكرى فى الأمر فى هدوء وفى الوقت متسع
وما إن خرجت أمها حتى أطلقت نجوى لأفكارها العنان وكان كل

تفكيرها منحصراً فى كمال أما الشاب الآخر فقد أقصته من ذهنها إقصاء . وفكرت نجوى وأطالت التفكير فى مسألة عودتها إلى كمال وكانت أثناء تفكيرها تحس أن لها نفسين إحداهما ترحب بالعودة وتحدثها عن السعادة التى تنتظرها فى كنف زوجها الأول والسرور الذى سيأتيها من وجودها مع ابنتها عفاف ، والأخرى تستنكر هذه العودة وترى أن أيسر حقها لذكرى زوجها الثانى ولكرامتها وإنسانيتها واحترامها لنفسها أن ترفض الزواج وأن تحجم عنه إلى آخر يوم من أيام حياتها .

وأنفقت نجوى عشرة أيام فى ذلك التفكير ولكنها لم تستطع أن تصل إلى حل يستريح إليه قلبها فهى ما زالت تحمل لكمال شيئاً من الحب ولكنها كانت فى الوقت نفسه تذكر مرارة الحياة التى عاشتها معه بسبب طموحه وجموده وتقلب أهوائه وعواطفه ، كما كانت تشعر بأن شخصاً مثله طبع على حب المال من العسير أن يتحول عما طبع عليه وقد جربته ومنحته أكثر من فرصة ولكنه عجز عن مقاومة حبه البغيض للمال وآثره فى النهاية عليها .

وشعرت نجوى بعد هذا التفكير بالهموم تتألب عليها وبالضيق يغزو صدرها وقضت أيامها التالية تتنازعها شتى الخواطر والمشاعر المتضاربة .

وذات يوم دخلت عليها أمها مرتبكة يكسو وجهها الجزع والاضطراب فنظرت إليها نجوى بعين يبين فيها القلق وقالت :

— ماذا ؟ أراك مضطربة ، هل حدث شىء ؟

فأجابتها بصوت راعش متهدج : عفاف يا نجوى عفاف ...

فانخلع قلبها وقالت فى جزع : عفاف ! ! هل أصابها مكروه؟ تكلمى.

فقالت متلعثمة : لقد أصيبت فى حادث سيارة ونقلت إلى المستشفى .

فصاحت نجوى واجفة القلب :

— يا إلهى . . كيف حدث ذلك ؟

— كانت فى طريقها إلى القاهرة عندما اصطدمت السيارة التى كانت تقلها بسيارة نقل .

وفى تلك اللحظة أقبل أبوها ساهم النظرات وقال لها وهو يربت كتفها بحنان :
لا تجزعى ، ليست الحالة خطيرة ، هيا ارتدى ملابسك فالسيارة تنتظرنا بالباب .
فارتدت نجوى ملابسها مسرعة واندفعت وراء أبويها وصدرها يعلو ويهبط من شدة الانفعال .

وأقلتهم السيارة بسرعة إلى المستشفى وصعدوا تواً إلى حجرة عفاف فألفوها فى فراشها فى غيبوبة البنج وعلى مقربة منها كمال وأمه وأخته يجلسون فى صمت ووجوم ، فلم تلتفت نجوى إليهم وإنما اندفعت فوراً ناحية عفاف فألفتها ممتقعة بادية الضعف والهزال ، وأثر منظرها فى نفسها أبلغ تأثير فانحنت عليها وقبلتها ثم انفجرت فى عاصفة من البكاء والنحيب ، فأقبل عليها الجميع يهونون الأمر عليها وتقدمت أم كمال منها فاحتضنتها وقبلتها وكذلك فعلت أخت كمال ؛ وعندما جاء دور كمال دنا منها وحياها فى حيرة وهو يجفف جبينه ثم قال لها بصوت متهدج : لا تجزعى ، إنها بخير .

ثم عاوده صمته المضطرب وجعل يخالسها النظر وهو لا يقوى على مغالبة حيرته وقلقه وارتباكه ، وتيسر لها فى هذه الآونة أن تراه جيداً فارتسمت على وجهها الدهشة من جراء التغيير الذى طرأ عليه فقد كان ضامر الجسم ، زائغ النظرات ، غائر العينين ، يعلو وجهه الشاحب أثر جرح كبير أضفى على سحنته مسحة غريبة من الدمامة والقبح . وهالها منظره فالتفتت إليه وفى عينيها مزيج من الدهشة والانقباض وكانت على وشك أن تقول له شيئاً عندما دخل الطبيب وطلب إليهم مغادرة الغرفة لينهى مهمته مع المريضة . فخرجوا وتوجهوا إلى غرفة الانتظار ومكثوا فيها بعض الوقت إلى أن جاءهم الطبيب وأعلنهم باستفاقة عفاف من غيبوبتها فأسرعوا إلى غرفتها تتقدمهم نجوى وما إن تلاقت نظراتها بنظرات ابنتها حتى اندفعت نحوها وهى تقول فى صوت مختنق بالعبرات : عفاف . . بنتى . . . حبيبتى .

وشهد الجميع على أثر ذلك منظراً مؤثراً بين الأم وابنتها دفع الدموع إلى أعينهم من شدة التأثر والانفعال .

وفى اليوم التالى قضى الجميع وقتاً إلى جوار عفاف ثم انصرفوا الواحد تلو الآخر ما عدا نجوى فقد آثرت أن تبقى إلى جوار ابنتها إلى أن تنام. وفيم كانت تتهيأ للانصراف تقدم منها الطبيب وقال لها فى رقة :

— مساء الخير يا نجوى هانم . . .

— مساء الخير .

— أريد أن أتحدث إليك فى أمر يهمك .

— أنا طوع أمرك .

— أنت بالطبع يهمك أن تنال عفاف الشفاء بسرعة .

— بكل تأكيد يا دكتور ، إنها أملى الوحيد فى الحياة .

— إذن يجب أن تعلمى أن الأمر فى يدك أكثر من أى شخص آخر

— إننى لا أتردد فى بذل كل ما أملك فى سبيل عفاف ، ماذا تريد منى أن أفعل ؟

— إنك تعلمين طبعاً أن الحالة النفسية للمريض لها أعظم الأثر فى شفائه.

— طبعاً . . طبعاً .

— حسناً . . إن هذا من شأنه أن ييسر مهمتى معك .

— أية مهمة يا دكتور ؟

— مهمة إقناعك بالعودة إلى الأستاذ كمال .

— وكيف علمت بهذا الأمر ؟

— لقد تحدث إلىّ الأستاذ كمال فى هذا الشأن وطلب إلىّ أن أتوسط فى الصلح فقبلت على الفور ، فما قولك ؟ فصمتت برهة ثم قالت :

— يؤسفنى أن أقول لك إننى لا أستطيع أن أعود إليه .

— ولماذا ؟

— لظروف خاصة لا يمكننى البوح بها .

— أهى ظروف صعبة تستعصى على الحل ؟

— هى كذلك .

ـ إذن دعينا نبحث عن حل آخر ، هل لديك اعتراض فى أن تعيش عفاف معك ؟ فقالت فى لهفة :

ـ أبداً . . أبداً . . إن ذلك هو غاية مرادى :

ـ حسناً ، سأتدبر الأمر مع الأستاذ كمال ، وبهذه المناسبة أتمانعين فى الاجتماع به غداً .

ـ ليس لدىّ مانع مطلقاً .

وفى اليوم التالى توجهت نجوى إلى المستشفى فاستقبلها الطبيب محيياً وقال لها :

ـ الأستاذ كمال ينتظرك فى قاعة الاستقبال وستتحدثان على انفراد ، أرجو أن ينتهى كل شىء على خير .

ـ هل ناقشته فى موضوع عفاف ؟

ـ نعم .

ـ وماذا كان جوابه ؟

ـ وعد بألا يخيب لك أى رجاء .

وقادها إلى القاعة ثم تركها عند الباب وانصرف ، وما إن رآها كمال تهلل عليه حتى نهض وأسرع إليها يحييها ودعاها للجلوس فجلست وهى تقول :

ـ لقد أخبرنى الدكتور أنه بحث معك موضوع عفاف وأنك وافقت على أن تعيش معى .

ـ نعم ، لقد حدثنى بكل شىء .

وصمت لحظة ثم نظر إليها وقال فى صوت متهدج يفيض بالاسترحام :

ـ لماذا يا نجوى ترفضين الصلح ، إننى أتوسل إليك أن تعودى لأننى لم أعد أستطيع الحياة بدونك . فطأطأت رأسها برهة ثم رفعت إليه نظرها وقالت :

ـ معذرة يا كمال ، إننى لا أستطيع أن أعود إليك بحال من الأحوال .

فامتقع وجهه وتتابعت أنفاسه وبدا لها أن جرحه الغائر يبرز على نحو مفزع وبعد لحظة سمعته يقول :

ـ ولماذا يا نجوى ؟ أتجدين أنى تغيرت كثيراً ؟ ألا يعجبك منظرى ،

إنى أصارحك بأن منظرى لم يعجبنى أنا نفسى ولكنى معتزم أن أسافر إلى أوربا قريباً لتدارك هذا التشويه وسألتمس كل حيلة لإزالته ولكن هذا لا يمكن أن يكون سبباً فى رفضك لأننى أعلم مدى ما عليه قلبك من طيبة ونبل ، أما إذا كنت ما زلت تحملين لى ضغناً بسبب تصرفاتى الماضية فثقى أننى ندمت أشد الندم على ذلك بعد أن أظهرتنى الأيام على ما كنت أجهل.

فنظرت إليه فى إشفاق وقالت : إننى لا أحمل لك فى نفسى ضغناً ، ولا أمانع فى العودة إليك بسبب منظرك كما توهمت ، ولكنى أرفض العودة لأننى قررت بينى وبين نفسى ألا أتزوج أبداً لأن الزواج أصبح فى نظرى شيئاً بشعاً لا أستطيع احتماله .

فقال وهو يرنو إليها فى ضراعة : أتوسل إليك يانجوى أن ترثى لحالى ، إننى إنسان محطم وأنت الشخص الوحيد الذى يستطيع إنقاذى .

وفى اللحظة التالية ارتمى على يدها يبللها بدموعه فسحبت يدها فى رفق وقالت وهى تنظر فى أسى إلى شبحه المتضرع المتخاذل :

— أرجوك يا كمال ، أرجوك ألا تزيد فى بلائى ، لو كنت أعلم أننى سأسعدك لما ترددت فى العودة إليك ، ولكنى واثقة بأننى لن أستطيع أن أسعدك كما أسعدتك فى الماضى .

فقال فى حماس : بالعكس ، أؤكد لك أننا سنكون أسعد زوجين ، أؤكد لك أننا سنعيش فى شهر عسل دائم يا نجوى .

— أراك لا تفهم نفسيتى ، لقد تغير فىّ كل شىء ، ثق أنك ستضيق بى بمضى الزمن .

— هذا محال يا نجوى ، إنك لا تدرين كم شقيت وكم تعذبت بسبب فراقك ، إننى لا أتعجلك يا نجوى ، ولكنى أريد أن أتأكد ، أريد أن أسمع أنك ستعودين إلىّ يوماً ، أى يوم تختارين .

ولم يسعها إلا أن تهز رأسها وتحول عنه بصرها فحملق فى وجهها يستقرئ معارفها ولاح له أن الرفض رفض صادق فقال لها :

ـ أصدقيني يا نجوى ، هل فى حياتك شخص آخر ؟

فأجابته فى شىء من الحدة : كيف يخطر لك هذا السؤال ؟

ـ سامحيني ، لم أقصد أن أسيء إليك ، لقد أردت فقط أن أعرف سر إصرارك على هجرى ، وما دام الأمر كما تقولين فهل أفهم من ذلك أنك ما زلت متعلقة بذكرى زوجك الثانى رغم خيانته ورغم أنك لم تصيبى على يديه سوى الحيف .

فقالت فى لهجة يشوبها الاستنكار : لا تحقد كل هذا الحقد على ميت ، وبهذه المناسبة دعنى أوضح أننى لم أخنك فى يوم من الأيام كما أن برهان لم يخنى مع ابنة خالته كما توهم الناس ، ولو أننى خنتك وتورطت فى إثم لما تزوجنى لأن الرجال لا يتزوجون النساء الخائنات ، وقد ألح فى الزواج منى وأرهقنى وأرهق أبى بإلحاحه لأنه أدرك أنه كان السبب فى المحنة التى حلت بى .

فأجابها قائلا : إننى معترف بخطئى ، وما دمت قد اعترفت بخطئى فلماذا يا نجوى تصرين على رأيك ؟

ـ لا تسلنى لماذا بعد أن أخبرتك بجل السبب ، لقد قررت أن أعيش كما تعيش الراهبات أكرس كل وقتى وجهدى لرعاية عفاف لأننى مؤمنة بأننى سأشقى وأشقى غيرى معى إذا تزوجت .

ولمعت عيناها ببريق الصدق والإصرار فلم يسعه إلا أن ينهض ويقول :

ـ كما تشائين يا نجوى ، سأذهب وأدع لك عفاف فاسهرى عليها . . الوداع يا نجوى .

فشيعته بنظرة إشفاق ، وظلت ترقبه حتى طواه الباب .

ثم نهضت وتوجهت إلى غرفة عفاف يملكها البكاء .

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

تهدف إلى نشر الثقافة عن طريق الرقى بالكتاب العربى

مكتبة الأطفال والناشئة :

أكبر وأجمل مكتبة للأطفال فى الشرق العربى ، تضم أكثر من ٥٠٠ مجموعة تستهوى الأطفال بفنها وألوانها .

المكتبة الثقافية :

تقدم آخر ما وصلت إليه المنجزات البشرية ، وتكشف عن القيم الخالدة للتراث الإنسانى .

المكتبة المتخصصة :

تقدم الأعمال العلمية والفنية والأدبية التى تهم القارئ المتخصص .

الكتب المدرسية :

نشرت الكتاب المدرسى فى أرجاء الوطن العربى .

سلسلة (اقرأ) :

طبقت شهرتها الآفاق بتنوع موضوعاتها ، ورخص سعرها .

خدمات التوزيع :

بجانب توزيع كتبها فى جميع أنحاء العالم ، تقوم الدار بتوزيع كتب أخرى مختارة بشروط خاصة .

خذ المعارف من دار المعارف

القاهرة : ١١١٩ كورنيش النيل و ٩ شارع كامل صدقى بالفجالة

الاسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول — و ٩ ميدان الترعة بالمنشية أسيوط : شارع جمال الدين الأسيوطى

٥ قروش ج.ع.م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر	
٦٠ ق . ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب	
٧٥ ق . س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً	
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس		

٥/٠٠/٠٠/١٨٨